الغضب الآتـــى

محمد محمود عبد الرازق

وزارة الثقافة



سلسلة
أصوات أدبية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

377

سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداع أدباء مصر
فى الشعر والقصة والرواية

• الغضب الآتى
• محمد محمود عبد الرازق
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2007 م
216 ص. 5ر13 × 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: سماد عبد الحليم
اسامة محمد عبد الهادي
• رقم الإيداع: ٩٩٩٤ / ٢٠٠٧
• الترقيم الدولى: 4-315-437-977
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 7947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 3904096

الغضب الآتى

الغضب الآتى

الغضب الآتى

(1)

جلس وسط البرية الموشحة وحيدا، كانت مقفرة إلا من الجوارح والثعالب فى أوقات نادرة. صحراء رملية فى أكثر أجزائها ، تكتسحها الرياح الشديدة. لم يجد ما يأكله، الحجارة المحيطة به تتحدى جوعه ، أكل الجراد والعسل البرى الذى يصادفه فى شقوق الصخور، شرب من مياه جدول يجرى نحو البحر، لم يجد رفيقا سوى الوحوش، اكتفى بقميص من وبر الإبل، وبمنطقة من الجلد على حقويه، واتخذ من إحدى المغارات بيتا له، ذهلت القافلة!!... رأت شخصا نحيل الجسم، غائر العينين، مفتول العضلات، يتدلى شعره على كتفيه، يصرخ فى البرية:

«توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات».

انتشرت الأنباء بسرعة مذهلة، تقاطرت إليه الجموع من كل جانب . فجأة!!.. ظهر قائد عظيم فى البرية... اتخذ مقره فى مكان لا يبعد كثيرا عن الواحة. كانت حياته الخشنة الموحشة قد شقت الحجب، فمكنته من رؤية الأشياء على حقيقتها.

يا أولاد الأفاعى.. من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى؟..

(2)

يقال إن رد فعل الخرافة هو الكفر، وإن رد فعل الفريسية هو الصدوقية، كان يصر على المناداة بالغضب الآتى، وكانت هاتان الطائفتان ممثلتين فى الجموع التى احتشدت على شواطئ النهر..

- أأنت المسيح؟..
- لا ... لست أنا المسيح..
- إذن فأنت إيليا..
- لست أنا..
- النبى الذى بشر به موسى.
- لا ..
- من أنت إذن؟
- ..
- نريد أن نعطى جوابا للذين أرسلونا..

- ...

- ماذا تقول عن نفسك؟

- أنا صوت صارخ فى البرية:

قوموا طريق الرب.

(3)

رويت روايات عجيبة عن التأثير الذى يحدثه فى حياة سامعيه... أراد رئيس الربع أن يسمع صوت البرية، كانت حياة القصر كئيبة مملة، لا مانع إذن من أن تحدث زيارته بعض التحول ... ولا مانع من أن يتحمل قليلا من خشونة كلامه وفظاظة طباعه، زيارته لن ترضى أتباعه.. ولهذا - وحده - قيمة كبيرة عنده..

اكتظت القاعة بالمستمعين، كانوا يحضرون كلما حضر الزائر بالملابس الفخمة، واللآلىء النادرة. فى الوسط جلس رئيس الربع وسط الأثاث الفاخر، المرأة التى كان يعيش معها عن يمينه، وابنتها عن شماله، حولهم رجال الحاشية ونساؤها: النبلاء والوصيفات والجند والخدم.

بدأ الزائر كعادته بمهاجمة الخطيئة ومفاتن العصر، وباسم الله أمر بالتوبة وإصلاح الحياة، تأثر رئيس الربع كعادته ووافق على اقتراحات الزائر، أدرك منذ الوهلة الأولى أنه الصادق الأمين، كان يستمع إليه فى سرور، ولم يكن يساوره أى خوف، كان كمن ينظر إلى البرق فى السماء، لكن

البرق هبط - هذه المرة - إلى عقر داره، تكلم الزائر كلاماً شخصياً واضحاً، عندما بدأ يهاجم الفساد الذى ملأ القصر، خيم السكون، وسادت الرهبة، أشار الزائر إلى المرأة الجالسة بجوار رئيس الربع، وصرخ فى وجهه:

- لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك

(4)

بنى رئيس الربع سوراً ضخماً يحيط بقمة الجبل، الجبل المرتفع محاط من ثلاث جهات بهوة سحيقة.. لا يمكن تسلقها ولا ترى العين قاعها، على زوايا السور أقيمت أبراج يصل ارتفاع الواحد منها إلى مائة قدم، داخل السور بنى قصر عظيم به صنوف من الأعمدة صنع كل منها من حجر واحد، وغطيت جدران غرفه بالرخام الملون، وبه كل أنواع الترف والحمامات الفخمة، كما زود بصهاريج ضخمة، وثكنات للجند، ومخازن شحنت بكل ما تتطلبه حالة الحصار. كان الناظر من الشبابيك يرى الجبال الأخرى والمدن المحيطة بالجبال، ويرى البحر والنهر الذى تحف به الأشجار المتنوعة والنخيل وقصب الغاب، ويتصاعد منه ضباب كثيف، ويرى المياه الكبريتية المتفجرة من شقوق الصخور .

على بعد قليل من القصر كان هناك حصن كئيب مظلم به سجن سفلى ومنحوت إلى أسفل فى الصخر، فى هذا السجن رقد ابن الصحراء الممتلئ قلبه بحب الحرية، أوثقوا العصفور

البرى فى قفص ضيق لكى يضرب رأسه وقضبانه، والشمس تدعوه للتحليق فى الفضاء، وقضى على روح صوت البرية أن تتحمل التعذيب البطىء بضعة شهور مضنية فى السرداب المظلم.

(5)

أضيئت غرفة الوليمة بالأنوار المتعددة، وزينت الموائد بالزهور، ووضعت فوقها الأوانى الذهبية والفضية، والخدم يجيئون ويروحون فى ثياب مطرزة، ورئيس الربع يتكئ على أريكته، مستندا إلى وسائدها فى تراخ، وهو يأكل ويشرب ويتبادل أحاديث المجون مع أتباعه، وعندما فعلت الخمر المعتقة فعلتها، وامتلأت القاعة الفسيحة بالصخب الماجن، جاء دور النساء ليقمن ببعض الحركات التى تلهب المشاعر، وبدلا من الراقصة المحترفة التى تعد لأمثال هذه الاحتفالات، دخلت ابنة المرأة، وأبرزت جميع مفاتنها قطرة قطرة، وفى جنون الشهوة وعد رئيس الربع الفتاة بما تطلب.. حتى ولو كان نصف ربعه، وكانت إجابة الأم حاضرة:

ـ اطلبى رأس ابن الصحراء.

فى الحال، دخلت قاعة الوليمة، وعيناها تتقدان بنار الحقد المستمدة من وحشية أمها، اصفر وجه رئيس الربع وهو يقبض على إحدى الحشايا ، ثم طلب منها الانصراف إلى حين.

(6)

سمع وقع أقدام فى الدهليز الخارجى، ظهر النور من عقب الباب:

- قم أيها الرجل.. لقد استدعاك الملك... لا تكلمه إلا بأرق الكلمات..احفظ عليك لسانك.. هذا خير لك.. لماذا لا تترك الملك يدير شئونه الخاصة بنفسه؟.. ليس لى أو لك دخل فى هذه الأمور .

سأله الملك:

- إلى أى حد يرتبط المرء بنفسه؟... لقد أقسمت .. وكان قسمى فى حضرة هؤلاء..

أمره أن يدنو منه وهمس فى أذنه:

- ألا أستطيع التراجع حتى لا تنعدم ثقتهم فى؟..

لكن ابن الصحراء ابتعد عنه، وصاح موجها حديثه إلى الكافة:

- إن رجلا لم يتورع عن اغتصاب زوجة أخيه.. وعن سفك دماء شعبه يتحدث عن الحنث فى القسم!!..

ثم وجه الخطاب إليه:

- هل كان يجب أن تقسم؟

- لا ..

- هل تخشى عواقب التنفيذ؟

- نعم..

- أنت تظن أنك ملزم بالتنفيذ لأنك تعهدت به.

- نعم..
- وتعلم أنه سوف يجلب عليك الشقاء المقيم..
- نعم..
- ويدفعك إلى عصيان الله..
- نعم..
- قف لحظة وأخبرنى..
انتفض الملك واقفا دون أن يشعر..
- ماذا كانت حالتك عندما قطعت على نفسك ذلك العهد؟...
- ..
- كنت فى حفل غواية... أليس كذلك؟
- ..
- الطعام والخمر واللهو والعبث .. أتسمعنى؟..
- نعم..
- عليك أن تتصرف فى ضوء نور الله الكامل.. ولتطهر قسمك بالتوبة والإيمان .

(7)

جلس الملك على أريكته ، أخذ نفساً عميقاً وهو مغمض العينين، فتحهما مع إخراج النفس ثم صفق بيديه، هرع إليه بعض الخدم، أشار إشارات فهموها... تقدم خادمان يحمل كل واحد منهما طبقا من ذهب، فى أحدهما رأس المرأة... وفى الثانى رأس ابنتها!!..

جأر صوت البرية ذاهلا:

- لا .. ليست تلك هى المشيئة أيها الملك... لقد اعترضت الطريق وعطلت المسيرة... المكتوب أن أقتل أنا... أن تأمر أنت بقتلى أنا... أن يحمل سياف طبقا من ذهب عليه رأسى أنا.. أنا السابق.. أنا الممهد.. أن يعطى السياف الطبق للصبية اللعوب.. أن تعطيه الصبية.. لأمها الجميلة كالحية.. المميتة كالحية.. كيف يأتى الغضب إذن؟!... لقد قطعت عليه الطريق واغتلته... إننى شاهدته .. شاهدته.. شاهدته بعينى هاتين... كنت واقفا على حافة النهر... وإذا السماوات انفتحت .. ورأيت حمامة آتية عليه... عليه... الحمامة التى ظلت أجيالا طويلة تبحث عن مكان تستقر فيه... الحمامة الهائمة... الحمامة لا الغراب الذى يقتات على الموت... الحمامة الحياة... عرفت أن مهمتى أوشكت أن تنتهى... أن رسالتى كادت أن تتم... لكننى أنا الآن... أنا بفعلتك أنت... أنا بفعلتك تلك .. لم أنته... ولم أبدأ... لم أوجد أصلا... لقد أجهضت ولادتى وأجهزت على.. علينا أن ننتظر قرونا طويلة أخرى... ليصعد شيخ كبير إلى جبل الرؤية... ويطلق البخور الذكى حتى يظهر له ملاك الرب... ويبشره بغلام من صلبه... يمهد الطريق الوعرة للغضب الآتى... الغضب الآتى.. لقد هربتم .. هربتم من الغضب الآتى..

(8)

طال على الخراف ترك المراعى الخضراء.. والمياه الرائقة، والأمن.. كانت مازالت تسير فى ظل وادى الموت، وكل خطوة تخطوها محفوفة بالذئاب. غادر بيته فى سفح الجبل المرتفع، كانت الأرض محملة بالكروم، وفى عينيه دموع، كان يعلم أن الدموع تفتح أعيننا ، وتجعلنا نرى داخل سحبها ما لا يمكن أن يراه أولئك الذين لا يبكون، قادته الدموع إلى جبل الرؤية، كشفت أمامه ما لا يراه الذين لا يجرؤن على صعود الجبل، لطالما فتحت الدموع بيته للذين حطم الحزن قلوبهم... الذين يأتون إليه طالبين تعزية وضيافة، ثم يتبين أخيرا أنه استضاف ملائكة وهو لا يدرى أن الدموع تعده الآن ليرى الملائكة واقفين بجانب مذبح البخور ساعة الصلاة، فيسمع كلمات لا يسوغ للشفاه البشرية النطق بها قبل إتمامها، عندما وصل الهيكل أقام فى أروقته، وقضى نهاره فى الدار الداخلية.. هذه الدار التى لا يدخلها غير الكهنة فى ثيابهم المقدسة، لم تكن هناك خدمة أسمى من تقديم البخور على مذبح ذهبى خاص بالقدس ساعة الصلاة، كانت هذه الخدمة تنال بالقرعة، ولم يكن يسمح لأحد بتأديتها مرتين.

تصاعد دخان الذبيحة المسائية ، وبدأ المصلون الذين يحتلون الدور المختلفة يخرجون، ليقدموا صلواتهم فى سكون، اعتزل الكاهن المساعد، أما هو فقد وقف للمرة الأولى والأخيرة وحيدا أمام المذبح المقدس، نثر حبات البخور على

الفحم المتوهج، كان المساعد قد أتى به من مذبح المحرقة. بدأ البخور برائحته الذكية يصعد ويحجب ما حوله، دخلت الصلاة إلى مسكن قدسه السماء. ظهر ملاك الرب واقفا عن يمين المذبح، كان هو الملاك جبرائيل الواقف قدام الله.

حرب الحبشة

عسكرت الفرق المصرية فى ثلاث قرى. اشتغل كل فريق بحفر الآبار ، كانوا يجندون الماء، وكان الماء يكفيهم ثلاثة أيام ثم يصير ملحا، كنت مأمور الحملة، فى عهدتى عشرة آلاف حيوان من الجمال والخيل والبغال، كانت أغلبها - ومعها العلف من الشعير والفول والذرة والتبن - تؤخذ غصبا، كانوا يعدون الأهالى بخصم أثمانها من الضرائب، والضرائب لا نهاية لها، ولا يمكن لأى حاسب أن يعرف ما له وما عليه، لعدم وجود الماء الكافى لهذه الحيوانات، أمرت بحفر بئر فى قرية «أم كلو» لبعدها عن البحر ظهر ينبوع ماء عذب سائغ شرابه لا ينقطع ولا يتغير، أمرت ببناء البئر بالحجر بناء قويا ، وبناء حوض بجانبه امتداده ثلاثون مترا وعرضه متران لشرب البهائم، أقمنا على البئر ساقية حديدية استحضرت

من مصر، وأجرينا الماء فى مواسير لسقيا أهل البلد ومستخدمى المحافظة، لا ريب فى أنها مازالت باقية أثرا عظيما يعرفه سكان مصوع الذين أصبحوا فى راحة من عناء طلب الماء من مجارى السيل البعيدة.

قلق الخديو إسماعيل من طول المكث فى مصوع ونواحيها، شدد على القائد العام ورئيس أركان حربه بسرعة الزحف على البلاد الحبشية والانتقام منها، فقد قتلت الأورط الثلاث التى قام بها أراكيل بك الأرمنى محافظ مصوع إلى أسمرة. أحاط الأحباش بالعساكر وأفنوهم عن آخرهم، ومثلوا بالقتلى وجبوا مذاكير من سلموا من القتل، كذلك ذبحوا الفرقة التى أرسلت مع سنجر بك الإنجليزى إلى تجره، ومنها إلى الملك منليك ملك «شوا» بطريق قبيلة الحنفلى بقصد التغلب على بلاد يوحنا بمساعدة منليك الذى صار امبراطورا بعد قتل يوحنا بيد الدراويش السودانيين، لما قرب سنجر من حدود «شوا» قام شيخ قبائل الحنافل برجاله، وباغت العساكر المصرية ليلا وهم نيام ، وذبحهم عن آخرهم، وأخذ أسلحتهم وذخائرهم، وجميع ما معهم من الهدايا الثمينة المرسلة إلى الملك منليك، اشتد غضب الخديو وأمر بإرسال الجيش المصرى من ثلاث فرق بطريق البحر الأحمر إلى مصوع، وعهد بقيادته إلى راتب باشا سردار العساكر المصرية، وأمره أن يكون مقيدا برأى أركان حربه الجنرال لورنج الأمريكانى

الذى كان رئيس فرقة من المتطوعين فى الحرب الأمريكية ولا يعرف الفنون العسكرية، وكان أكثر رجال أركان الحرب الذين معه من بنى جنسه.

ظل الجيش فى مضاربة مدة ثلاثة أشهر بغير عمل ولا تدريب. كان الخديو يرسل كثيرا من المخلل والفجل والبصل والكراث خشية حدوث داء الإسقربوط، كان جميع الرؤساء من أفراد الآلايات والبشوات من العنصر الجركسى إلا واحدا مصريا - هو محمد بك جبر - لا رأى له ، تهيبوا لقاء الجيش، وظنوا أن التراخى يحمل الحكومة المصرية مصاريف باهظة تعجزها عن القيام بنفقات الجيش ، فتأمر بعودتهم إلى مصر بلا قتال، عندما صدرت أوامر الخديو انقطعت وتيرة كل تقاعس.

أمرنى رئيس الجيش بأن أسلم كل آلاى خمسين جملا لحمل الذخائر والخيام والمؤن.

- من الضرورى أن يكون مع كل آلاى عشرة جمال خالية من الأحمال... حتى إذا ضعفت بعض البهائم عن السير استبدلت بغيرها.

- قائم مقام أحمد عرابى... لا تفعل... دع كل دابة تتأخر بحملها لا تعود.

لكى يتحقق من تنفيذ أوامره ، أمر اثنين من معاونيه بالوقوف على باب المر عند الشروع فى السير، حتى لا يتركا

دابة تمر بدون حمل.

سافرت الفرقة الأولى بقيادة أمير اللواء عثمان رفقى باشا، سافر معها راتب باشا وأركان حربه ليلاً، فى صحوة ذلك اليوم سرت على آثارهم بحملة قدرها خمسمائة دابة محملة مؤنا وعلفا، أورطة من العساكر، لما بعدنا عن مركز أم كلو بنحو ستة أميال وجدت الجمال والخيل والبغال السابق إرسالها مع الفرقة الأولى منتشرة على رءوس الجبال وبطون الأودية بأحمالها، بعضها يرتع ويرعى، وبعضها مشتبك فى شجر السلم والأبنوس وأم غيلان، وبعضها خلع أحماله من الجبخانة والبقسماط والتين والشعير والفول.

هذا ما خشيت وقوعه..

وهذا ما أراده القائد العام.

أمرت الحملة بالوقوف عن التقدم، أمرت قائد الأورطة الحامية للحملة بسرعة جمع الدواب المنتشرة بأحمالها، فى أثناء ذلك مر علينا الأمير حسن باشا ابن الخديوى ومعه معاونوه وخدمه وكان أبوه أرسله ليشهد الحركات الحربية ويتدرب فيها. أخبرته بحقيقة الأمر فتركنى وسار ليلحق بالفرقة الأولى، عند جمع البهائم وجدنا نحو خمسين حملا من البقسماط مبعثرا هنا وهناك، تبين أن فرقة الحمالة التى جاءت من سواكن ألقت أحمالها، وفرت بجمالها ، من حسن الحظ أن كان بالحملة خمسون جملا خاليا كاحتياطى، فحملناها الميرة وواصلنا السير، كنا نجد بين الفينة والفينة

بغلا محملا بجبخانة، أو جملا متروكا بحمله فنأخذه معنا، وجدنا فى مجرى السيل حفائر ماء فبتنا بجوارها وسقينا الدواب، كان الماء عذبا فراتا، والهواء لطيفا، وفيها ينبت شجر القفل ولأوراقه رائحة ذكية.

فى اليوم التالى توجهنا إلى خور بعرظا فوصلناها بعد العصر .استقبلنا كثير من عساكر الفرقة الأولى التى كانت قد عسكرت على شاطئ هذا الخور، شكوا إلينا الجوع لعدم إعطائهم القوت الكافئ صرحت لهم بالأكل حتى الشبع على ألا يأخذوا معهم شيئا، بعد ثلاثة أيام أتت الفرقة الثانية، قامت الأولى إلى قياخور، والثانية إليها ومنها إلى قرع. صدر لنا الأمر باتخاذ بعرظا مركزا متوسطا للحملة والمؤن والذخائر بين مصوع وقرع، عسكر القائد العام وفرقة راشد باشا راقب فى قرع، واختط فيها قلعة خفيفة، وكذلك فعل عثمان رفقى باشا بفرقته فى قباحور. أقاموا على ذلك أربعين يوما ويوما بلا عمل، لم يستكشفوا ما حولهم من الأودية والخيران والجبال المنقطعة، بل إن رئيس أركان الحرب لم يضع رسما لمعرفة أبعاد المواقع المناسبة لاتخاذها ميدانا حربيا، كانت الذخيرة ترسل يوميا إلى قرع استعدادا لإمداد الجيش إذا سافر إلى مدينة عدوى عاصمة مملكة الملك يوحنا، صارت زكائب البقسماط فى داخل الاستحكام كالبروج المشيدة العظيمة، ومع ذلك كان القائد العام يأمر بشراء كثير من الدقيق والشعير من سوق الأحباش ، كل هذا .. ولا يعطى

العساكر إلا نصف المرتب من البقسماط ومع أن النفر كان يعطى بأمر أركان الحرب مائة درهم من اللحم البقرى، أى ثلاثة أمثال المقرر له من اللحم حتى فشا فى الجيش داء الدوسنتاريا أى الإسهال الشديد مع الزحير المؤلم، ولولا جودة الهواء لهلكت العساكر من الجوع والإسهال.

كان أحد القساوسة الفرنساويين المبشرين فى بلاد الحبش، يتردد كل يوم على رئيس أركان الحرب الجنرال لورنج الأمريكى مستطلعا أحوال الجيش المصرى ، حتى علم بمقداره واتفق معه على الحركة المريبة التى تكون سببا لهلاك الفرقة المصرية عند الصدمة الأولى، وكان يبلغ معلوماته فى كل يوم إلى الملك يوحنا، فحشد الملك جيشه، وكان عدده ينيف على الثلاثمائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على عادتهم فى الدفاع عن بلادهم، وأتى على مقربة من الجيش المصرى المعسكر فى قرع.

عند بدء المعركة ألقى جميع أركان الحرب الأوربيين والأمريكيين جانبا طرابيشهم الرسمية، ولبسوا قبعاتهم ثم ربطوا على أعناقهم مناديل بيضاء ليأمنوا على أنفسهم من الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القس.

بعد أن أخذ كل من الجيشين مكانه ورتب رجاله، ابتدأ جيش الحبش بإطلاق المدافع، كان معه ثمانية مدافع أهديت للملك يوحنا من رئيس الحملة الإنجليزية مكافأة له على مساعدة الإنجليز فى محاربة الأحباش فى عهد الملك تيودور

الذى انتحر فى قلعة مجدلة فور انخذال جيشه، وخلفه يوحنا فى ملك الحبش مع أنه لم يكن من بيت الملك، بل كان رئيسا للأشقياء وقطاع الطرق، وكان معه كذلك ستة مدافع مصرية غنمها فى هجومه على أراكيل بك الأرمنى.

خرجت سبع أورط بيادة وبطاريتان طوبجية إلى النقطة التى اتخذت ميدانا للقتال على بعد ميلين من قياخور، كان ترتيب الأورطة البيادة على شكل طابور، والطوبجية على اليمين، ووراءهم جبل، وأمامهم خور عميق لا ماء فيه، كأنه خندق طبيعى، كان هذا الخور ملتفا حول الجبل من الميمنة والميسرة، فظنوا أنهم به فى حرز منيع، كانوا كمن ألقى نفسه فى مضيق لا مخرج منه إلا بالقتل أو الأمر.

أبيدت القوات عن آخرها، إلا من أسرع به جواده كراتب باشا وحسن باشا ابن الخديو، اغتنم الأحباش الأسلحة والذخائر الحربية والأموال وملابس العساكر وما معهم من حلى وساعات ونقود.

مما يحمر له الوجه خجلا مرور الأحباش فى أثناء هجومهم أمام فرقة قياخور بحيث تصل إليهم مقذوفات المدافع المصرية وتمنعهم من التقدم، ومع ذلك لم تطلق عليهم مقذوفة واحدة، ولم تخرج البيادة إلى الميدان لتساعد إخوانهم وتنقذهم من الفناء المحدق بهم.

أدهى من ذلك أن البكباشى خسرو أفندى كان فى طليعة بأورطة خارج القلعة، رأى تقدم الأحباش فأراد أن يعترضهم،

منعه عثمان باشا رفقى قومندان منطقة قياخور، وأمر برجوعه ودخوله القلعة، وهم ينظرون إلى إخوانهم حتى تم إفنائهم، كان فى إمكان عساكر قياخور الهجوم على ميسرة الأحباش وتبديد شملهم، لو أدوا واجباتهم الحربية.

قمت بآخر رحلة من مركز بعرظا قبل بدء المعركة. كان معنا ثلاث أورط بقيادة اللواء راشد باشا كمال، وصلنا إلى عقبة بميا، عقبة صعبة الرقى مرتفعة عن سطح البحر بمقدار ثلاثة آلاف قدم، لا يمكن للراكب أن يجتازها على ظهر جواده أو مطيته، لا مناص من الترجل والمشى على القدمين لصعوبة الصعود والهبوط، لا تمر الدواب إلا الواحدة بعد الأخرى، اجتزناها بصعوبة بالغة، سقط بعض الجمال بأحمالهم من أعلى العقبة إلى مضيق الوادى، تابعنا السير حتى وصلنا إلى خور عدرسا. بتنا هناك حيث وجدنا على شطآنه غابات من نخيل البلح، قيل إنها من آثار عساكر السلطان سليم الذين أكلوا التمر بالنوى على شاطئ الخور.

قمنا من تلك المحطة، وسرنا إلى الأمام حتى وصلنا إلى سهل عالا، سهل واسع كثير الأشجار، سمعنا دوى المدافع المتتابع وعلمنا بوقوع الحرب، أسرعنا ، وصلنا إلى قلعة السلطان سليم بعد غروب الشمس بساعتين ، تقع القلعة على سفح جبل قياخور، كانت قد انقطعت أصوات المدافع ، خططنا الرحال وهيأنا الطعام للعساكر والعلف للدواب، بعد الاستراحة استأنفنا السير ليلا، ارتقينا عقبة قياخور فى

ساعتين، وصلنا إلى فرقة قياخور ، كان رئيسها أمير اللواء عثمان باشا رفقى، تقدمنا منه، وهو جالس يصطلى النار الموقدة أمامه من شدة البرد، سألناه عن الحالة فأجاب وهو فى حيرة واندهاش عظيمين:

ـ فرقة قرع هلكت عن آخرها .

أحزننا هذا الخبر المفجع، جلسنا مع أمير اللواء إلى نصف الليل، جاءت إشارة ضوئية بأن راتب باشا وحسن باشا وجميع رجال أركان الحرب الأمريكيين وصلوا إلى مراكز الفرقة سالمين، أما راشد باشا راقب والأمير آلاى محمد جبر وبقية الضباط والعساكر فقد استشهدوا ، ومن سلم منهم أخذ أسيرا ، لم يبق فى المراكز إلا أورطة واحدة من العساكر المستجدة ، كان عمر أحدهم لا يزيد على خمس عشرة سنة.

وفى اليوم التالى أطلق الأحباش المدافع المصرية التى غنموها بالأمس ، هجموا هجوما شديدا على القلعة، تسلقوا جدرانها بشجاعة عظيمة، كانوا يدوسون قتلاهم وجرحاهم ولا يبالون الموت. وأبلى عساكر الأورطة المستجدة وضباطهم وراتب باشا ومن معه من المعاونين بلاء حسنا، ردوا الأحباش على أعتابهم، شوهد راتب باشا وهو يصب نارا حامية بيده على الأحباش الذين حاولوا الصعود إلى قمة القلعة، وكان على الروبى البكباشى السوارى يطوف القلعة مرارا يحثهم ويشجعهم، حتى ملئت الخنادق وما حولها بجثث الأحباش،

كـان عـدد القـتلى منهم يزيد على عـشـرين ألفـا ، لما رأى الأحباش من هذه الأورطة ما رأوا ، ضعفت نفوسهم، وندموا على هـجـومـهم ، وتحـولوا بعـددهم وعديدهم ومن مـعـهم من الأسرى المصريين من قرع إلى مركز آخر داخل بلادهم.

انتهت تلك الحملة ـ التى سببها الطمع ـ بالخيبة والفشل، ثم العودة إلى مصر بعد عقد الصلح مع الملك يوحنا ، بمعرفة البكباشى على أفندى الروبى ـ رقى الروبى إلى رتبة أمـيـر آلاى وأوفده الخديو إلى الملك يوحنا بهدايا ثمينة. كان الأحباش يشترون منه الريال أبو طيره بجنيه من الذهب من النقود المسلوبة من القتلى والأسرى، حصل منهم بهذه الطريقة على مبلغ وافر لأنهم لم يكونوا يعرفون العملة الذهبية، لما عادت الحملة إلى مصر لم تلق غير وجوه عابسة، كان الخديو قد عزم على محاكمة القائد العام والباشوات وأمراء الآلايات . اتفق إذ ذاك أن هجم حسن شركس مملوك المرحوم السلطان من مسدسه فقتل أحمد باشا القيصرلى وغيرهم. قبض عليه وقد وحوكم وقتل، خشى الخديو أن يصيبه مثل ما أصاب القصيرلى إذا أصر على محاكمة قادة جيش الجراكسة، فغير عزمه وبش فـى وجوههـم ووضع بيده النياشين فوق صدورهم .

شكوى عمدة العزيزية

سمعت طرقا شديدا على باب منزلى ليلة الثلاثاء ٢٥ مارس ١٩١٩ الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، كنت نائما ، استيقظت مذعورا، ووجدت على سلم بيتى نحو عشرة جنود من الإنجليز مسلحين بالبنادق يقودهم اثنان من ضباطهم يحملان المسدسات فى أيديهما، ويرافقهم أمباشى وعسكرى مصريان ومترجم..

قال لى المترجم:

يأمرك الضابط بأن تقدم سلاحك حالاً، ثم تجمع أسلحة البلد فى خمس عشرة دقيقة.

كان مسدسى فى حجرة نومى، ما إن أحضرته حتى اندفع الجند فدخلوا حجرة النوم، وكان بها زوجتى وبناتى الثلاث الصغيرات، اشتد خوفهم وامتلأن رعباً فاختفين تحت

السرير جازعات قبل أن يلمحهن الجند، الذين انهالوا وضباطهم على الصندوق والدولاب فكسروهما، وأخذوا ما كان بهما من الحُلى، ثم فتشوا الفراش، وأخذوا محفظتى وبها خمسون جنيها، وساعتى وسلسلتها الذهبيتين ، ولمحوا زوجتى ملقاة تحت السرير ، فجذبوها من شعرها جذبا عنيفا وهى تبكى وتستغيث وحولها بناتها الصغيرات يصرخن مولولات وأكبرهن فى الثامنة، فتشوا زوجتى شر تفتيش، ثم انطلقوا للغرف الأخرى يسلبون ما يروق لهم، ويحطمون كل ما تقع عليه عيونهم من خزائن وصناديق وموائد وأثاث وآنية، حتى وصلوا وأنا معهم إلى الشقة الأخرى من المنزل، وكانت بها زوجتى الثانية وولداها فحاولت أن تختبئ أدركها أحد العساكر بضربة ألقتها صريعة منتحبة تكاد تموت رعبا ، رفعت عينى للضابطين أتوسل إليهما أن يرأفا بالمخدرات من النساء، وأن يرحما أطفالى الضعفاء، فهمت من جمودهما أنهما راضيان ، صعدوا للطابق الأعلى فوجدوا خزانة سميكة من الحديد حاولوا فتحها فعجزوا ، لما ترددت فى فتحها هددنى الضابط فأعطيته المفتاح، أخذوا ما كان بها وهو تسعمائة وخمسين جنيها وباقى مصوغات زوجتى الثانية ونساء أولادى اللواتى كن يومئذ غائبات..

أمرونى أن أرشدهم عن بيوت المشايخ، وساقونى مخفورا مجردا مما يسترنى من الثياب ، صنعوا بهذه البيوت - وبمنازل بعض الأهالى التى تظهر عليها الوجاهة - ما صنعوه

بمنزلى، ثم أمروا المترجم فصاح فى الناس بأن الإنجليز سيجعلون البلدة كلها طعمة للنار، وأن كل شخص له أن يأخذ نقوده وما لديه من حلى ومتاع ثمين ويغادر البلد سريعا ، بادر السكان إلى تنفيذ ما أمروا به ، وخرجوا رجالا ونساء وأطفالا هائمين قبل أن تلتهمهم النار بما يحملون، وكان البلد محاطاً بالعساكر المسلحة بالبنادق، فانقضوا على الناس عند خروجهم وسلبوهم كل ما وجدوه معهم، وكانوا يفتشون النساء، ويرفعون منهن ملابسهن، أو يمزقونها عليهن، ويضعون أيديهم حيث شاءوا بحجة التفتيش، ولم أنظر بنفسى اغتصابا، وإنما سمعت بالبلد عند عودتى أن الجنود الإنجليزية اغتصبوا بعض النساء غير أن الفلاحين يستحيل عليهم - صونا لسمعة بيوتهم وفرارا من العار - أن يعترفوا علانية بشىء من ذلك مهما كانت النتائج، وحدثنى عمدة البدرشين ، قال إنه علم بعد عودته من الحوامدية أنهم قتلوا الكثيرين من بينهم غالية زوجة الشيخ حسنين الجرار الكفيف البصر ، حاول جندى الاعتداء على عفتها، فدافعت عن عرضها دفاعا شديدا مقاومة الجندى مدة طويلة ، ولما لم يتمكن منها أخذ يضربها بعقب البندقية على رأسها حتى سقطت ، فجردوها من حليها وفاضت روحها بعد ساعات قليلة.

تركت القوة الإنجليزية فى بيتى بعض العساكر . رأيت النار تندلع منه، وأنا فى أقرب بيت له من بيوت المشايخ،

علمت من أهلى أن الجنود وضعوا فيه النار بعد أن أخذوا أو دمروا كل شىء، وكذلك فعلوا فى بيوت البلد ، كانوا يجمعون القش والمواد سريعة الالتهاب ويوقدون بها النار، فإذا أبطأ الاشتعال صبوا عليها جازا مما فى البيوت، وكان بعضهم يحمل صفيحة مليئة بالبترول يسكبون منها، وكانوا يطلقون النار على كل من يرونه يحاول إطفاء النيران المشتعلة فى داره، ولما كان البلد مكونا من أربعة كفور، وكانت كلها محاصرة بالعساكر المسلحين، فقد فعلوا بها مثلما فعلوا فى الكفر الذى أقطنه. وقبضوا على المشايخ وضموهم لى بعد نهب منازلهم ، وكذلك وكيل شيخ الخفراء الذى نهبوا ماله أيضا وأهانوا زوجته ثم أخذوا يجمعون الأوز والدجاج ويخنقونها ، وذكر لى عمدة البدرشين أنه بعد أن عاد إلى بلده علم أن أذاهم لم يقتصر على الناس، بل تعداهم إلى الماشية، دخلوا منزل سليمان غطاس وسرقوا ما فيه من نقود وحلى، وضربوا جاموسته بالرصاص، ويضيف أنهم كانوا يقتسمون الغنائم أمام من سلبوهم، دخلوا بيت محمود عبد المطلب أحد مشايخ البلد، واستولوا على نقود وحلى تبلغ قيمتها سبعمائة جنيه تقريبا، وأهانوا زوجه وسلبوا أساورها، وحلقها ولبتها واقتسموا ما حصلوا عليه أمامه، وأخرجوه مخفورا إلى قنطرة البلد، ثم نسوه - على ما يظهر - لانشغالهم بسواه فعاد إلى بيته . وغاب جنديان فى البلد طويلا، فكلف الضابط الكبير ملاحظ البوليس بالبحث عنهما ،

وجلس الضابطان والعساكر بقهوة فى شرق البدرشين يقتسمون النقود والحلى.

عثروا فى دار وكيل شيخ الخفراء على راية يمشى بها أمام الموتى حين دفنهم مكتوب عليها الشهاداتان وآيات من القرآن الشريف فربطوا الدواجن بها وحملوها لوكيل شيخ الخفر وخفير آخر، وكانوا يريدون تحميلى إياها، وما بقى حمله بعضهم وساروا جميعا فى هذا الموكب نحو الحوامدية. وكلما استبطأوا سيرنا - وأكثرنا من كبار السن الضعاف - وخزونا بأطراف السيخ ولم يسمحوا لنا بالركوب مبالغة فى التعذيب، وكانت الشمس قد ارتفعت فجاء جندى منهم بآلة تصوير وأخذوا رسمنا على هذا الحال.

وصلنا إلى نقطة الحوامدية ونحن فى حالة يرثى لها قرب الظهر، فوجدنا بها أيضا عمدة البدرشين وأحد مشايخها فأخبرانا بأن بلدهم نالت حظها من العذاب، وبقينا مدة طويلة فى الشمس والتراب تحت أفواه مدافع لهم فى الحوامدية والجند حولنا بالبنادق، ثم طلعنا جميعا لبناء تابع لفابريقة السكر، ووجدنا به ثلاثين ضابطا واقفين ورئيسهم جالس، فجاء بنا عبد المجيد أفندى ثروت ملاحظ بوليس نقطة الحوامدية المؤقت أمامهم..

قال الضابط الأكبر:

سأخبركم الآن عن تهمتكم..

جريمة العزيزية أن بعض أهلها ضربوا أحد الضباط

البريطانيين فى الطريق المؤدية لأهرام سقارة، وكان الضابط يقصدها مع بعض الرفاق من الضباط..

وجريمة البلدين معا هى أننى سمعت وأنا بالقاهرة أن أهلهما اشتركا فى إحراق محطتى الحوامدية، والبدرشين.

قلت:

إننى كنت وعائلتى وأهل بلدى نحافظ على الفابريقة نفسها أثناء الهياج، بدعوة من مديرها وملاحظ النقطة مصطفى أفندى عمار، واستهدفت الموت فى هذا السبيل، وأصابت رصاصة ملاحظ البوليس فجرحته وأنا بجانبه، وكان محتملا أن أقتل أثناء الدفاع، ويمكنك أن تسمع شهادة الضابط المذكور ومدير الفابريقة ومستخدميها ومأمور المركز يعرف جيدا كل هذا..

لم يقبل رئيس الضباط كلامى..

والحق أن بلدينا لم يشتركا فى تخريب السكة الحديدية، وإنما أتلفها - على ما أعلم - قوم غرباء ، وإحراق المحطات كلها فى الجيزة كان قبل منشور القائد العام بعدة أيام، ولا أعرف أبدا أن أحدا من بلدنا اعتدى على أى ضابط..

أنذرنا كبير الضباط بأن نجمع كل ما فى البلد من سلاح، وإلا أحرقها وأحرقنا فيها، وأن كل مخالفة سيجازى عليها - فى المستقبل - بالإعدام، ثم كتب بالإنجليزية فى ورقة ، كلف الملاحظ ترجمتها بالعربية فى ورقة أخرى، وتلاها علينا ، ونصها على ما أذكر:

نحن عمد ومشايخ العزيزية والبدرشين نأسف على ما أصاب السكة الحديدية من التخريب، وما حدث من اعتداء على عساكر الدولة البريطانية، ونقر بأن كل ما حدث لبلادنا حق وفى محله، ونحن على استعداد لتقديم الأنفار التى تطلب منا، مهما بلغ عددهم بلا أجر، وإذا تأخرنا نكون قابلين الأحكام العرفية.

وأكد لنا الملاحظ أن الامتناع عن التوقيع معناه رمينا بالرصاص، ولعلمنا أن ذلك ممكن جدا قياسا على ما ارتكبوه من فظائع، وتحت تهديد المدافع والبنادق وضعنا إمضاءاتنا وقال لنا الملاحظ إنه سيشهد على الورقة مكرها مثلنا لأنهم هددوه.

ثم ذهبنا إلى مديرية الجيزة فشكونا شفاهيا لسعادة المدير حمدى بك سيف النصر، ثم توجهنا للقاهرة فشكونا لجناب المستشار، وفى اليوم التالى فتح حضرة مأمور الضبط إبراهيم أفندى دسوقى أباظة تحقيقا سمع فيه أقوالنا وسمعنا شهادة الملاحظ أمامه تدل على صدقنا ، وتنطبق على الحقيقة المروعة، فقد روى ما شاهده بنفسه من مناظر القتل وإشعال النار والنهب والسرقة والتدمير والاعتداء على النساء وإهانتهن وسلبهن حليهن بعنف وقسوة تركت فى أيديهن وآذانهن الآثار الدامية من خلع الأساور والأقراط ، وقرر أن رجال الجيش كانوا يهينونه إذا احتج، وكان ضباطهم لا يعبأون بما يشاهدونه من الفظائع، بل يشتركون أحيانا فى

ارتكابها وذكر أنهم هددوه شخصيا باعتباره شريكا لنا فى جرائمنا إذا لم يشهد علينا كما ذكر أنه رأى الأوز المسروق مطبوخا ومهيئا للأكل على مائدة حضرات الضباط وكان رئيسهم يأكل معهم، واستدعى حضرة مأمور الضبط الإمباشى المصرى الذى كان مرافقا للقوة التى هاجمت العزيزية، وجاءت شهادته مطابقة لأقوالنا ، وقرر أنه رأى العساكر بنفسه يلبسون الحلى الكثيرة، ويعبثون بها، ويعرضونها للبيع على المارة.

لما عدت إلى البلد وجدت أن عدد البيوت المحروقة بلغ مائة وثمانين بيتا تقريبا ، وأن أكثر الأهالى هاجروا ، وأن أختى أصيبت بمرض شديد مما لقيت من صنوف التعذيب، ولم يبق فى منزلى غير بعض حصر محترقة، ونقلت عائلتى ففرقتها على البلاد البعيدة.

وليس فى استطاعتى أن أسرد كل ما ارتكب من الفظائع، ولا أن أصف سلسلة الأهوال التى نزلت بكفور العزيزية المسكينة، وقد أصبت بمرض عصبى شديد جعلنى فى غاية الضعف، وأقمت مؤقتا بالقاهرة، بعد أن قدمت استعفائى للمديرية.

تباهيت بأنى أعرف الأمير ، لم ألحظ امتقاع وجهك فأضفت معتزا: إنى أحد فنانى قصره، قبلك كنت ضائعا أقلد الأقدمين. أصب تمثيلى على قوالبهم، صرت أغنيتى التى أترنم بها، لوحتى التى أستعذبها. أبدا لم يكن لقاؤنا صدفة.. وإن جاء صدفة، كان إلهاما من الآلهة. مثل دخول النبى فى حالة غيبوبة قبل أن يتلبسه الوحى وينطق بكلمة الله .. دخلت، شعرت بأنى نفس مرهفة بكر، وأن المس الموحى يوقظ لدى النغمة الغنائية المقدسة.

قفزت الجداول فقفزتها.

قطفت الزهور فقطفتها.

نثرت الأوراق فنثرتها.

ارتميت على العشب تشيعين البهجة فوقفت..

عابدا متبتلا..

التفت نحوى..

أكسبت الالتفاتة وجودى طعما جديدا: الرهبة والرغبة، التنائى والتدانى، الصدود والصمود، الترقب والأمل، التفاتة منك تعنى أشياء كثيرة، دخلت الأشياء كلها مع النسيم إلىَ صدرى، عبأتها وحفظتها فى قلبى، خاشعا مثلت، المثول أمامك يروى ظمئى، عندما طال رشـشتنى بالمياه الملونة... صبغت الألوان وجهى، نظرت إلى ملابسى، جاست خلالها البقع والنهيرات اللونية، تخللتها فغمرتنى الفرحة، لابد أن هيئتى كانت مضحكة، استلقيت على العشب من عمق المسرة، رششتك بالألوان فى ألفة. كأنه ليس أول لقاء، اتكأت على ذراع واحدة ورذذتنى بالأخرى، من الأعماق ضحكت وأنت تشيرين إلى، أبدا ليس أول لقاء من الأعماق ضحكت وأشرت إليك، نظرنا فى مرآة الجدول فاستغرقنا فى الضحك متعانقين، إنى لأشعر أننا منذ البدء فى لقاء، أنت التى أرسلتنى للحياة، ومن خلالك مشوقا أود أن أعود... أعود... أعود... أذوب.. أذوب من جديد.

عندما نحت تمثال سيتا اخترت له صفاء وجهك... نهوض نهديك.. انسراح عودك..

دهش الأمير..

الآن يا ولدى أنت مبدع متفرد .

مبدع اكتشف صوته المميز.

لم أكن أتصور أن الأمير يتذوق الإبداع، ترى هل أملاه الكلمات خيراؤه المخلصون ؟

أيها الفنان العظيم:

اليوم عيد ميلادك الذى نعرفه.

ما تعودت مقابلة الحكام فلم أنبس، وقفت أمامه بالصنم القابع داخلى... الأمير يتكلم.. معك.. يوجه الحديث إليك.. الأخطر أن عليك أن ترد.. اللياقة والتبجيل.. لايعقل أن يتكلم الأمير وتظل أنت صامتا، حطم الصنم القابع داخلك... انطق..قل: أشكرك يا سيدى الأمير... يامولانا أوقع... أشكركم.. صيغة الجمع للتبجيل... وهل لمثلى أن يشكر الأمير!!.. حتى حينما كلفنى.. بأمر منه لا عن طريق خبرائه.. بتشييد معبد راما ما شكرته. ها قد واتت الفرصة الحقيقية لأحكى بإزميلى عذابات سيتا وراما.لماذا فرقوا بينهما؟!..أبدا ما استطاعوا أن يقطعوا الموصول بالطبيعة، جابت سيتا الآفاق، تحملت الجوع وعثرات الطريق، فى النهاية التقت بمن يبحث عنه قلبها ، يالروعة اللقاء العظيم، هاهى اللحظة تتجسد أمام ناظرى... الحياة كلها لحظة..لحظة لأجلك... تعلقت بك العيون وأنت فى إشراقة الصباح تمرحين.تسمرت أمامك الأجسام وأنت فى سبحات السماء تحلقين... فى عباءة الغروب تبزغين ولا تغربين، بلمسة من يدك دبت الحياة، وتضوعت بعبير عبيرك الكائنات، قلت: إنها حبيبتى... هاهى سيتا تدب فيها روحك.. سيتا وقد

اخترت لها وجها كوجهك.. أطياف الصفاء، وشفافية الحزن، وحياء البسمة، ما أحلى بسمتك الحيية، وأروع شفافيتها..شعرا كشعرك حينما يبدأ مداعباته مع النسيم، نهدين كنهديك، وهما يتمردان على حبكة الأزرار فى شموخ يكاد يفتك بها. ساقين كساقيك فى روعة انسيابهما.. فى مشية الهوينى، وكأنهما تهمان أن تطيرا .. فى جلسة التسامر ورأسي..رأسى أنا لا رأس راما مدفونة بين نهديك، نشوانة بدفئهما ، فى نظرة عينيك جسدت إشراقات المودة والحب، فى كل عطفة وانحناءة اخترت... اخترت!!... من قال إنى أختار؟!... الإزميل يعمل، والحجارة تتناثر ، فتخرجين من وسط الصخر... رائقة.. رائعة، تناهى إلى صوتك من جوف الكتلة، فحثثت صفير الصخر على البوح بمكنون سره..

بهت الأمير:

إنها تنطق..

مع كل خطوة أخطوها أكاد أحلق فى السماء..

ليست هذه اليد المبدعة يد إنسان..

الإنسان مهما أبدع لا يبلغ الكمال..

لا يصل إلى روح الآلهة..

إنها نفحة من روح الآلهة..

تسمر أمام تماثيل البهو مشدوها:

إن أيدى الآلهة لا تؤجر..

لا تكافأ..

إنها تأمر..

الآلهة تأمر..

***

كنت أريد ..أريد ملهمتى.. موهبتى.. حبيبتى التى تمثلتها، واسترحمت قلب الإزميل كى لا يسهو أو يخطئ، فيخدش ويدمى وهو يزيح الخمار الصخرى عن وجهك، كان يوم عرسى ، وكان شهوده الليل والمصباح، وحدى أنا ولست وحدى، قال الناس: إنها سيتا تخرج حية... تعود من جديد لتنشر البشر والنماء، قلت: إنها حبيبتى... حبيبتى... التى رأيتها فى مهرجان الألوان منطلقة تمرح، لم أكن أعرف أن لقاءنا .. على ضفاف النهر المقدس كان صدفة... وأن الصدفة اختلست من قبضة جبار عنيد، كنت أعتقد أنه إلهام من الآلهة... ولم لا يكون كذلك؟! ..إنه كذلك رغم كل ما حدث، استلقينا على العشب وقد هدنا التعب، هدأت قهقهاتنا، واستيقظت فى عينيك النظرة الحيية. تحدثنا كثيرا وتواعدنا مساء، كيف تنشدين الليل، وقد التقينا فى وضح النهار؟!... حتى فى الليل الهامس كنت تتلفتين دوما، واجمة حزينة تطرقين، وحين أضحك تفزعين، بلهفة الرأفة تضعين يدك الحلوة على فمى، وفى عينيك شعاع رجاء.

رغم تعملقه ، كان كعمالقة الأساطير حين تنحنى لمخلصها من القمقم، عملاق هو لكنه للحظات مملوك لا مالك، تطول هذه

اللحظات كلما تمكنت من القبض على سره - أميرى سره الفن ـ الفن سر وداعته لا خضوعه، طهر مطهر الأرواح روحه. لا يمكن لإنسان يتذوق الفن أن يكون مخادعا.. أو مراوغا..أو كاذبا.. أو غاشا... أو غابنا... أو حاقدا... أو ظالما.. أو باطشا، الفن يدفع الآدمى إلى السمو الإنسانى.. يرفع الإنسان إلى عوالم الشفافية والطهارة والبراءة. بالفن أنت إنسان متطور... بغير الفن آدمى متدهور، قلت : أريد فتاتى، نعم قلتها، قيل لى إنك لن تأخذ حقك إلا بالعنف أو الخديعة. ها أنا ذا على شفا أخذه كله... دفعة واحدة... بكلمة شرف...

رفع الأمير حاجبيه فى بشاشة وقال:

يبدو أن الحب غزا قلب فتانا .

قلت:

إنها ملهمتى..

انظر..

انظر يا مولاى..

انظر إلى هاتين العينين..

الشفتين الدافئتين..

الأنف..

استدارة الوجنة..

أليست هى؟.

أليست مولاتى الأميرة؟..

صعق الأمير!!..

الأميرة!!..

جحظت عيناه، وشهق شهقة عظمى ارتعبت لها فرائص خبرائه، خبراؤه من أهل الثقة، هو صاحب نظرية أهل الثقة وأهل الخبرة، الثقة تنبع من القلب، والخبرة تباع على الأرصفة.. تكتسب.. تشترى، كيف يخفى عليك أنها الأميرة؟!... أكنت تتكلم بلسان خبرائك؟...ألم يكن رأيك أنت؟!.. أكنت تنقل كلماتهم الكسلى..إنها ضحلة كاذبة... إنهم جهلة... منافقون... من تسميهم أهل الثقة يلتفون حولك لأنك تستطيع... لأنك وحدك الذى يستطيع ... أنت القادر المعز المذل.. هم يعلمون أنك ترفع إلى مراتب النبوة، وتهوى إلى مهاوى الشياطين، ترفع إلى مصاف الأمراء وتهبط إلى صفوف الخفراء، الأمثلة أمام أهل الحظوة عظة... ليس لديك عزيز... لا شفاعة لقرابة أو صداقة أو صلة رحم، من يقطع الأرحام تصله... من يخبر عن أخيه أو أبيه ترفعه. أن تملك هو كل ما يعنيك، هم لا يخشونك أو يحترمونك. هم يخشون السلطان، ويحترمون الملك، ويقدسون العزوة، من أجل الحظوة يقولون ما تريد أنت أن يقال، ما تحب أن تسمع، ويخفون ما تريد أنت أن يخفى... ما تكره أن تسمع، وإن كان محصلة العمق، وعين الخبرة، لماذا تثور فى وجه الصدق؟! .. لما ترفض الكلمة المخلصة؟!..

ثق بى..

بى أنا لا بهم..

أعطنى أميرتى..

أعطنيها تورق الأشجار، وتثقل بالثمار.

أتريد أن تظل هكذا تحلب بقرة عجفاء؟!

لماذا تثور كثور غبى؟!... هل أعمتك السلطة التى هبطت عليك إثر مغامرة؟!

ألا تعرف أنها الأميرة؟!

أميرتى..

ألم أقل لك إنى أسميته بهو الأميرة لأنه أحب أعمالى لدى... لأنه أروع ما استطعت أن أخرج من جوف الصخر؟!..

بصوت حاول الاحتفاظ بهدوئه ووقاره قال:

- عد إلى رشدك

قلت:

- إنها رشدى

كز على أسنانه وعلت نبرات صوته .

- ارجع عن غيك

كظم غيظه وقال بنبرة ترغيب:

- أهب لك الحياة

قلت:

- هى الحياة..

اعتبرها قحة منى.. أكملت:

- ولا حياة إلا بها..

ركلني..

- يا دنى

- يقول اللائمون إنى متهور فى حبها..وهل...

بصق على وجهى

- كيف تطلب منى..منى زوجتى؟!

قلت بوضوح تام:

- إنها ليست زوجتك

ضربنى فى بطنى فسقطت على الأرض ، فى اليونان عطل الطغاة مسيرة الشعب إلى الديموقراطيه ، أحست طبقة العامة بثقلها . لم تكن تمرست على القيادة بعد، استطاع المغامرون أن يتسلموا اللواء.. سموا بالطغاة. الطاغى .. فى لغة ذلك الزمان اليونانى... هو من يصل إلى الحكم بطريق غير شرعى، ثم اتصف الطغاة بالطغيان بالمفهوم الذى نعرفه حينما لجأوا إلى طرق غير شريفة فى الحكم، مثل مصادرة بعض أراضى الأرستقراطيين وتوزيعها على العامة، لكسر شوكة الأول وإرضاء الآخرين ، أنت فعلت ذلك أيضا... لعبة قديمة.. لكنك لم تلتفت إلى نهاية الطغاة ، لماذا لا تستفيد من التاريخ؟... لماذا لا تقرأ تاريخ الشعوب؟... كانت النتيجة المحتومة انفجار ثورات العامة، واغتيال بعض الطغاة وهروب آخرين، كان عهد الطغاة انتكاسة بين عهدين، وبنهايتهم كتب بداية حكم الشعب، رفعنى الحراس من أغلال وسطى وسواجير عنقى، انتصبت بكل غيظى واقفا، قلت رأيى فيه

بصراحة، قذفت به فى وجهه كبصقة حملتها كل شحنات الغيظ التى مزقت أحشائى..

- أنت محتال..

ندت عنه آهة، وظل مشدوها لحظة..

كيف أجرؤ؟..

كيف يجرؤ مثلى؟!..

على إلقاء كلمة حق.. في ساعة قضاء؟!..

أنا أعلم أنها مزيفة، رغم يقينى من زيف الساحة

قلتها، يتربع على المنصة رجل واحد محتال، وإن غصت أمام أعيننا بالقضاة... القضاة لهم شعور وضمائر مستعارة..

قال الرجل الواحد للقاعة المكتظة..

- ما الحكم؟..

كان السؤال مفاجأة غاضبة جاءت فى غير وقتها. علت الهمهمات المستفسرة، قضاتى كانوا مازالوا يفكرون فى أمور خارج القاعة، قضيتى لا تعنيهم... لا تعنيهم أية قضية، قضيتهم الأولى التى تعنيهم أن يظلوا قضاة والبقاء أطول مدة ممكنة أمر خبروه، وتمرسوا عليه، فليظلوا هكذا يتصنعون الوقار والإنصات كأنهم حضور وما هم بحضور، ساعة الحكم التى يعرفون ميقاتها يحكمون..

لم ينتظر الأمير نتيجة الهمهمات..

- إنه يريد أن تغتصب زوجتى!!..

وحين أرفض..

دوت القاعة بحكم الإدانة..

- الموت..

الموت..

الموت..

كانت القاعة تلحظ أن الأمير لم يتم حديثه... ولكنها قاطعته بحكم تجاربها معه تعلم أن الأمير يسره كثيرا أن يقاطع هنا، المقاطعة مظهر شورى، والأمير يميل إلى الحفاظ على المظاهر، هى على يقين.. - بحكم تجاربها أيضا- أنه سوف يتم حديثه.. ينتظر قليلا وكأنه يمتثل لرأى الناس... يرضخ لهدير الجماهير.. برأس مطأطأة، أو بالبسمة المصطنعة التى تدعى لوذ من لا حيلة له أمام رغبة الشعب بالصمت. ثم يندمج فى التمثيلية، مكملا حديثه بحركات بارعة مخرجة من قبل، من قبل مخرج أشر، كالمخرج الذى أخرج مسرحيته محاولة اغتياله فى المدينة الساحلية، ليزج بكافة الطوائف السياسية فى السجون ... حدث هذا فى بداية عهده المشئوم عندما تكشفت أطماعه، وكادت الأعاصير الشعبية تفتك به..

شوَّح الأمير بيديه فعلا... وزمجر معيداً فقرة من حديثه ليتمها، فجاءت هكذا..

وحين أرفض..

(فترة صمت)

.. يتهمنى بالاحتيال

علت الأصوات الصاخبة، مطالبة بقتلى..

الموت..

الموت...

الموت حتى الموت..

انتهى الرأى بأن أدفن حيا وسط بهو الأميرة الذى صنعته بيدى

قالوا:

«هتكا لسرها أو فضيحة لها»

عبارة كهذه أطلقوها نحاسية الإيقاع جوفاء. اقتادنى الحراس، ربطوا أغلال قدمى بأوتاد ثبتوها وسط البهو، ألقى البناءون مواد البناء على الأرض وكأنهم يلقون بها فى الخلاء، لا على جهد إنسان أضنى نفسه لا يرتفع نتوء أو تهبط بؤرة... كى يتلاءم اللون، ويعبر الحظ، أشف الألوان وأرهف الخطوط.. لم يقصدوا أن يشوهوا عملى، لكن أمر الحفاظ عليه لا يعنيهم، كانت المواد المعجونة تتناثر فى كل اتجاه فتصفع شذراتها الطائشة صدر ستيا، أو رأس راما، ملتصقة بهما كالخفافيش النهمة إلى مص الدماء. ، وبدأوا فى إقامة اسطوانة من الطوب حولى، وأجبروا الأميرة أن تكون بين الحضور .. والأسطوانة ترتفع رويدا رويدا..

بندورة

لماذا لا تقول ذلك للكتائبيين وأنت منهم؟... لم أطرح هذا السؤال على صاحب العمل. لكن يبدو أنه عرف ما يدور بخلدى. كان الينبوع يجرى حزينا وسط ستار من الأشجار الباسقة. وضبابات رقيقة بيضاء تنسدل علينا. والقمر يفيض على الأفق بنوره الرائق، والشجر يعكس الضوء الفضى، والأرض تسترخى فى نعاسها، وصاحب العمل يعب من النارجيلة عبا، يقول كأنه يخاطب نفسه: لن يصدقك أحد.. الجواب رصاصة... والعار لأسرتك، الصراع الدائر الآن صراع بين عائلات تسعى إلى السيطرة... بذرت بذور الحق والكراهية... وانتهى الأمر...

وكأنه يخاطب السماء:

ماذا ينبغى علينا أن نفعل لكى نخلص؟... ماذا؟...

جذب نفسا طويلا من النارجيلة وأخرجه بتؤدة..

علينا أن ننتظر..

أن نعمل..

أن نأكل..

أن نشكر..

أن ننتظر..

وأنت تنتظر .. .لا تؤذى أحدا... وخبز العيش للآخرين.. ألا تقولون ذلك؟... وليكن السلام ديدنك.. وسط الحرب ... الهول ..الحقد.. الكراهية... ليكن السلام ديدنك..

***

لم أكن أعرف الكثير عما يدور حولي، كل ما كنت أعرفه أننا نحارب من اغتصب الدار، وشرد الأهل، وقد خسرنا ثلاث جولات معه، لأننا نضرب من الداخل والخارج... ولأنه يحارب وأمامه صانعوه: القوى الباطشة التى تتحكم فى مقدرات العالم كله.. قوته ليست قوة، وإنما ضعف.. انفعال عصبى للضعف، وهو يدمر ويخرب ويشعل الحرائق فى الأطفال ويصيب الفتيات بالعقم، لأنه لا خلاق له، استعراض البطش إخفاء للضعف.. الضعف الجانى المستتر وراء البطش الجبان. أحسست أننا لا نملك مصيرنا فهاجرت إلى لبنان، فى لبنان عرفت أبعادا كانت خافية عنى، عندما نشبت الحرب كنت أعمل فى منطقة تسيطر عليها الكتائب، قالوا لى إن الضيف يريد أن يغتصب الدار ويشرد الأهل ! المشردون

يريدون أن يشردوا !!... وإنهم أرادوا أن يلعبوا نفس اللعبة فى الأردن فطردوا، وإن سوريا تقف لهم بالمرصاد، كنت أعمل عند عائلة مارونية، لبنان تسيطر عليها العائلات المتناحرة، قال لى كبيرها ونحن نقضى إجازة آخر الأسبوع فوق الجبل: لا تصدق ما تسمع، إنها مؤامرة أكبر من كياننا ، فالقوى العظمى تحاول أن تبذر بذور العداوة والبغضاء بين الشعب الواحد... بينهم وبين أهالى كل بلد يحلون به... والهدف هو إجلاؤهم عن منطقة المواجهة، حتى يعيش الغاصب فى سلام. فتلك القوى تعرف أنهم لن يكفوا عن النظر إلى بلدهم السايب. ومن ثم فهى تحاول أن تشتتهم فى دول البترول حتى يتجهوا إلى جمع المال، وفى دول الغرب.. بحجة الدعاية لقضيتهم فى مواطن الثقل الدولى، تماما كما يفعل عدوهم... وهم يغذونهم بهذه الأفكار حتى تصدر عنهم أنفسهم، ويعتقدون أنها من وحى اجتهاداتهم وإخلاصهم: ألا يسيطر العدو على المال الغربى، فالإعلام العالمى؟!.. ومت يا حمار..

جاءنى صاحب العمل وبصحبته شاب لم يتجاوز العشرين من عمره، قال إن علينا أن ننجز الواجهة فى أقرب وقت، لم تمض ساعات قليلة حتى عقدت الصداقة أواصرها بيننا، وكلما أنجزنا طابقا قفزت الفرحة من وجهه، الارتفاع طابقا معناه زيادة خمسين ليرة، كان يحمل جواز سفر لبنانى، ويتحدث باللهجة اللبنانية، قال لى إنه لبنانى الأب، فلسطينى

الأم، وكان يكره الحرب كراهية صاحبْ العمل لها رغم صغر سنه. يبدو أنه أدرك الحكمة مبكرا، حين حانت ساعة الغداء كان نشيطا جذلا. خاطب المكلف بإحضار الطعام فى رشاقة وحبور، صاح عندما ابتعد: هات لنا معك حبتين بندورة.

وقهقه بلا مناسبة، فانتقل سروره إلى صدرى.

كانت هذه العبارة هى سبب اغتياله فى نفس اليوم.

كان يقول لى: لا معنى لأن نندب خسائر الحرب، دون أن نحارب الحرب، ليس بوسعنا أن نسدل ستارا على هذا الخليط الكريه دون أن نزيله أصلا، إن بناء المقابر والنصب التذكارية الفاخرة لضحايا الحرب لن يقلل من عدد الضحايا ، أفضل وأسوأ شىء تستطيع أن تنجزه تلك الجهود وأمثالها ذات المظهر الإنسانى، هو أن تخفف من حساسية الناس للوحشية والقسوة، وأن تقلل فزعهم من الحرب، هناك لحظات أتساءل فيها عما إذا كانت البشرية لم تتحقق حتى الآن تشبه الخيال ، ولن نفعل شيئا إذا ما اعتقدنا أنه ليس هناك شىء ممكن سوى ما هو قائم بالفعل، إن التدنى السافر للحرب هو البناء وسط الدمار وكيف عرفتم؟!..

- من لهجته

- إن لهجته لبنانية

- أنت لا تعرف الفرق..

- وما الفرق؟

- سمعناه يقول بندورة بتسكين النون، ونحن ننطقها بفتح النون.

كان يقول..

وكنت أقول..

وكانت جدتي لأمي تقول: بندورة

وأمي: طماطم

وأبي: قوطه..

وكنت أقول...

وكان يقول..

***

كنا نجلس على السقالة عند الطابق الخامس... كنت أجلس عند طرفها الأيمن، وكان عند الأيسر..ندت عنه آهة... التفت إليه فإذا به يقبض على جنبه الأيسر، ظننت أنه أصيب بمغص كلوي.

كان سماع الطلقات قد أصبح لا يثير الاكتراث..

ـ ماذا حدث؟!..

ـ قنصت..

كانت هذه هي آخر كلمة نطق بها.

ـ تحامل على نفسك.. تجلد.. سوف نهبط سريعا..

عالجت الحبل، لكنه أخرج آهة مكتومة، وقبض على جنبه الأيمن..

ـ حاول ألا تترك الحبل.. تشبث به... سوف نهبط.. الآن..

لم أره..

سمعت فرقعة مدوية..

نظرت إليه ونحن نهبط فلم أجده بجانبى.
كان قد هوى.
تناثرت أشلاؤه على الطوار..
سال دمه إلى عرض الطريقس

انزعـجت زوجـتى، لابد أن السلم أرهقـهـا كـثـيـرا، لماذا تجـشـمـت كل هذا العناء؟!.. ثم أين سـعـدية؟... لماذا لم ترسلها؟... كانت تقطن العمارة المجاورة، وتتخذ من زوجتى ابنة لها، كانت لى ابنة فى مثل سنك، فى الحديقة كانت تنتشر الأزهار، وكان الفراش يتزاحم عليها، انهدم البيت عليهم وهم فى حـجـرة النوم: الأم والأب وثلاثة أطفـال ، كـانت زوجـتى ترعى شئونها ، كثيرا ما أرسلت لها طعامها من طعامنا، كانت ـ أحيانا ـ تعده لها فى بيتها ، عندما تكون سعدية فى بلدها، علمتها أصنافا شامية كثيرة... التبولة والكبيبة والمقلوبة و... لم أمل إلى اللفت المحشى..

جاءها خطاب من لوزان ينبئها بمصرع حفيدها .. الوحيد الذى تبـقى من أسـرتهـا ، كـان يدرس الطب فى لوزان،

ويزورها فى الإجازات ، طلب منها أن تقيم معه، رفضت ، لم تنبئنا بسبب الرفض، كأنه لا يحتاج إلى بيان، كانت تعيش على أمل أن ينهى تدريبه، ويستقر معها فى سيدى بشر..

هو قال ذلك..

وعدنى..

لم يخلف وعدا قط... عندما كان طفلا، كان أيضا رجلا، كان يحب قصص السندباد وينام فى حجرى، عندما صار صبيا ، كان يصعد الجبل وحده ليزورنى، يأتى ومعه فاكهة الموسم... أجمل وأطيب فاكهة كنت أذوقها ... تظل حلاوتها فى فمى إلى أن يزورنى من جديد، كان يشتريها من مصروفه، ويجلس معى حتى المساء... يحكى لى...نعم... هو الذى كان يحكى لى عن المشانق التى نصبها جمال باشا فى الميادين... عن اليونان... عن الألبان.. عن البلغار ... عن المدن التى يتمنى أن يزورها .. عن رجل يدعى زوربا كان يحمل الدنيا فى كفه ، لم يكن يريد أن يتركنى، وحين يحين الحين يسألنى... السؤال التقليدى: لم لا تنزلين معى إلى بيروت؟... ويتلقى الجواب التقليدى: قل لبيروت أن تصعد..

قالت:

سأموت هذا العام.

بكت زوجتى..

لكنها لم تبك..

كانت هادئة رزينة... فى بياض اللبن وبراءته... فى صفاء

النبع وطهارته، طرحتها البيضاء، تزيدها جلالا وبهاء

***

هرعنا خلف سعدية فوجدناها نائمة على سريرها . تلك هى الأم! .. تريد أن تخرج من أحشائها شيئا خالدا .. لكنها تلد للفناء، على وجهها ترتسم علامات حزن رزين وقور، كانت مفتوحة العينين وكأنها تتأمل قادما..

فى الزيارة الأخيرة جاءتنا مثقلة بالأحمال، فردت سعدية السجادة.. سجادة عجمى ثمينة، تذكرت زوجتى المناضل الفلسطينى الذى كان يتاجر فى السجاد العجمى المنهوب من قصور لبنان، ولقى حتفه فى لبنان.

- أين نانى؟

- فى المدرسة

إذن أعطها هذه... وتلك القطع أيضا... وضعت فوق السجادة بعض قطع القماش، قدمت لزوجتى مجموعة من الشماعات الأنيقة، التى لم أشاهد مثلها قط، لم أكن أعرف... ولم أكن أتصور أن شماعات الملابس تطعم بالعاج...

قالت برزانتها المعهودة، وصوتها العميق الحزين:

- وهذه للبك..

أما أنت .. فهذه لك..

وخلعت من صدرها سلسلة ذهبية يتدلى منها صليب كبير..

أرجو ألا ترفعيها من على صدرك..إنها من القدس..

كانت زوجتى فى حالة ذهول تام... كانت تقاطعها بين الفينة والفينة، فتسكتها بإشارة خفيفة من يدها وكأنها تقول لها:

صبرا..

فى النهاية قالت:

أخطأت الحساب.. قلت لك إنى سأموت هذا العام.. . لكنى أخطأت.. سأموت هذا الشهر... هذه الأيام..

وأوصت زوجتى بسعدية خيرا، قالت إنها أهدت لها جميع ما فى الشقة، وما تبقى لديها من مال، وأن مع سعدية ما يثبت ذلك، رجتها أن تقف بجوارها إذا ما تعرض لها أحد.

ارتدى حلة عسكرية برتبة نقيب، حمل مدفعا سريع الطلقات من طراز «جليل» بيده حقيبة سوداء صغيرة، داخل الحقيبة مسدس صغير، وعدة خزائن للطلقات ، وجه التحية للجنود، سألهم عن نظام الأمن، توجه يمينا إلى قاعة سيدنا إبراهيم، اجتمع المصلون اليهود احتفالا بعيد البوريم، صلى معهم، اتجه يسارا ، دخل قاعة النبى إسحق، وقف خلف العمود الصخرى العريض المقابل للمدخل، انتظر حتى سجد المصلون . كانوا حوالى خمسمائة، امتلأت القاعة بهم.

فجأة..

أغلق الباب!!..

لا أحد يعلم من الذى أغلقه؟!..

الحرم لا يغلق أبدا..

لا لليهود..

ولا للمسلمين!!..

خرج باروخ من خلف العمود، كان اسمه بنيامين جولدشتاين، غير اسمه الأول إلى باروخ، اقترن بفتاة من أتباع كاهانا، أتم الزعيم مراسم الزواج نفسه، استوطن باروخ مستعمرة كريات أربع، كان طبيبا، التحق بالجيش «ليقتل العرب» عندما توجه إلى لبنان مع قوات الغزو، رفض أن يعالج اللبنانيين.

ردد تعاليم الحاخامات:

لا يجب إنقاذهم إذا كانوا على وشك الهلاك..

لو تعرض أحدهم للغرق لا تمد له يدا،

لأنه هكذا كتب عليك .

قبل ساعات من خروجه كان يقرأ على أطفاله:

هكذا ضرب اليهود كل أعدائهم..

وفعلوا ما يشاءون..

لهؤلاء الذين يكرهونهم..

بدأ فى إطلاق النار بشكل منظم، كان المسلمون يستقبلون فجر يوم جديد من أيام رمضان ، يتوجهون إلى قبلتهم راكعين ساجدين فى حضرة ربهم، أفرغ نحو أربعة خزائن كاملة. والمصلون يصرخون ، ويجرون فى كل اتجاه ، حاولوا الفرار من أى منفذ، كانت كل المنافذ مغلقة، أغلب الذين نالوا الشهادة كانوا مازالوا ساجدين، ظل لمدة دقيقتين يوجه

سلاحه إلى المصلين الصائمين، لم تطش طلقة واحدة..

فور انتهاء المذبحة فتحت الأبواب!!..

لا أحد يعلم من أغلقها ؟!..

لا أحد يعلم من فتحها؟!.

أثناء العودة بالمياه والسجائر جرى شاب خلف السيارة .

طلب منا الاشتراك فى القتال..

- هل تجيد إطلاق النار؟

- لا ..

كل التنظيمات والمجموعات التى كانت تدافع عن السويس. لم يكن بينها أى تنسيق، ولم يكن يوجد مسئول رسمى. كثير من الشهداء كانوا مجهولى الهوية ، يتحركون بدافع من إيمانهم..

اعتذرت للشاب لكنه ألح..

- اعمل أى حاجة..

- مثل..

- املأ الخزائن

بعد الأحداث التى شاركت فيها منذ ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ مباشرة، طلبت منى جهات رسمية عديدة أن أقدم تقريرا عما قامت به المجموعة التى شرفت برئاستها ، وأن أذكر أننا كنا نتلقى تعليمات رسمية أو رئاسية، بل لقد طلبت منى بعض الجهات أن أدس بعض الأسماء ضمن مجموعتى ،ومارست معى ضغوطا متعددة مع الوعد بمستقبل باهر، ورغم أنى كنت نقيب شرطة صغيراً، إلا أنى رفضت تماما أن أقول غير الحقيقة، والحقيقة أننا لم نتلق التعليمات من أحد، وكنا نتحرك بوازع من ضمائرنا.

كان شابا جميلا ونظيفا..

أشقر الشعر..

أخضر العينين

استطعت تكوين مجموعة من الفدائيين أغلبهم من الجنود الذين انسحبوا بعد الثغرة، كانوا من الفيوم والاسكندرية والقاهرة وحلوان وقنا، وكثر المتطوعون أيضا وأغلبهم من المجندين، لم يكن لدينا وقت لمعرفة الأسماء والعناوين قسمت الفدائيين إلى مجموعتين فى خطة للدفاع عن المدينة ، المجموعة الأولى تتواجد بجوار الإسعاف والثانية تكون معى فى الثالثة من صباح ٢٤ أكتوبر علمت بوصول دبابات العدو من ناحية عتاقة فدفعت بالمجموعة الثانية فى هذا الطريق ليكون كمينهم إلى جوار مبنى المحافظة، فى الخامسة صباحا بدأ الطيران الإسرائيلى يدك المدينة بوحشية وبدون تمييز، مع

أول ضوء توجهت إلى مسجد الشهداء، كان المسجد مزدحما، تقابلت مع الحاج حافظ سلامة الذى كان يقوم بدور مهم فى تهدئة الناس، بدا كأنه قائد قومى أو أب روحى فى تلك اللحظات العصيبة ، عرفنى بالعميد عادل إسلام قائد الدفاع الشعبى والعسكرى ، كان معه كثير من الرتب العسكرية ، طلب منى إحضار بعض صناديق القنابل الحارقة الموجودة فى حجرة بمديرية الأمن، أمر الجندى محمد عيسى أن يذهب معى بالسيارة، لم تتم المهمة ، فالجنود كانوا فى كل المنازل تقريبا، وكانوا يضربون على أى هدف متحرك، وتلك إحدى الكوارث التى تسببت فى إصابة وقتل الكثيرين عن طريق الخطأ، عدنا بالسيارة إلى المسجد ، وأعدت المحاولة سيرا على الأقدام مصطحبا أحد المتطوعين، جرينا بجوار المنازل - رغم خطورة ذلك - وعاد كل منا يحمل صندوقا على كتفه، واستخدمت هذه القنابل لضرب دبابات العدو ومنعها من التقدم.

عندما قابلت الشاب أشقر الشعر كان معى محمد خلف، اصطحبناه معنا وتم توزيع المياه والسجائر ، ثم صعدت أعلى فيلا الرى لاستطلاع الموقف فشاهدت دبابة خلف سور مدرسة التجارة الواقعة على بعد أربعين مترا من الڤيللا، ومدافع نصف بوصة خلف السور العلوى ، كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا إلاربعا ، طلبت من محمد خلف التوجه إلى التشكيلات لنبدأ التعامل مع العدو فى الثانية عشر تماما،

بمجرد خروجه انهالت علينا قذائف الدبابات والهاون ومدافع نصف بوصة، كان الضرب مركزا أعلى ڤيللا الرى، بعد عشر دقائق توقف، فهمت أن ذلك كان تمهيدا لاحتلال مواقع جديدة، عاد محمد خلف وطمأننى على التشكيلات ، أطلقت طلقة الإشارة خلال ثوان معدودات التهب الموقف ، وفتحت جميع التشكيلات النار بكثافة وعنف على أماكن تواجد العدو، كنا نضرب فى خط طوله ٧٥٠ مترا، صوبت عدة قذائف (آر بى چى) على شبابيك مدرسة التجارة فتحولت إلى نيران مشتعلة.

شاهدت الجندى الذى ركب معنا السيارة، ولا يجيد ضرب النار، يعمر جميع الخزائن الفارغة بحماسة

سأله محمد خلف عن اسمه

قال:

- نبيل..

نبيل..

اسمه نبيل... واسمى حسن أسامة مصطفى رياض العصرة. من حى الأربعين فى السويس، ولدت يوم ١٠ أبريل ١٩٤٧. كان والدى يعمل موظفا بهيئة قناة السويس ، ترتيبى الأول بين أشــقــائى، ربانا والدنا على حب الله والوطن والتضحية فى سبيلهما، كان من فدائيى عام ١٩٥١، وخاض معركة كفر أحمد عبده. طول مراحل الدراسة كنت من الأوائل، حصلت على الثانوية العامة العسكرية من السويس سنة ١٩٦٥، تخرجت فى كلية الشرطة عام ١٩٦٩، عملت فى

أسوان وكوم أمبو وأسيوط، ثم نقلت إلى السويس معاونا لقسم شرطة السويس، حصلت على العديد من فرق الأسلحة والصاعقة والقوات الخاصة مع الجيش ، مما أفادنى كثيرا، بعد اندلاع الحرب فى السادس من أكتوبر بثلاث ساعات ، صدرت أوامر مدير الأمن بتعيينى ضابطا بمستشفى السويس الأميرى كنا ثلاثة ضباط بالقسم ، النقيب عاصم حمودة استشهد مساء ٢٤ أكتوبر ، وظل جثمانه ومعه أربعة من جنود الشرطة حتى حملتهم فى اليوم التالى، وأمرت بدفنهم بمقابر الشهداء والرائد نبيل شرف استشهد صباح نفس اليوم أثناء قيامه بالتعامل مع العدو بواسطة رشاش ماركة لرن، ونقل جثمانه بعد ثلاثة أيام بمعرفة بعض المتطوعين.

حدد قرار مدير الأمن مهمتى فى تحرير محاضر المصابين أو الشهداء، والإخطار كل عدة ساعات بالحالة العامة على أن يتم التنسيق بينى وبين ضابط من القوات المسلحة برتبة مناسبة ،وكان هذا الضابط يتغير باستمرار، وفى مساء ٢٣ أكتوبر حدثت الفوضى وعدم القدرة على التصرف ، واستيعاب الموقف من الجهات الرسمية العليا العسكرية وغير العسكرية بالمدينة، وكنت منذ يوم ١١ أكتوبر أقوم مع ضابط الجيش باستلام أسلحة المصابين والشهداء وإثباتها فى دفتر رسمى، ووضعها فى مخزن مفتاحه معى، وكانت بنادق آلية وقنابل (آر بى چى) وبمعرفتى استخدمت

هذه الأسلحة كلها صباح يوم ٢٤ أكتوبر ، أبلغت مديرية الأمن يوم ٢٣ أكتوبر بأن سيارات الإسعاف التابعة للجيش الثالث عادت بالمصابين المفروض توصيلهم للقاهرة بسبب وجود مدرعات العدو عند الكيلو ١٠٩ وامتلأت المستشفى هذه الليلة بالجرحى الذين وصلوا إلى ١٥٠٠ حالة، إضافة إلى العديد من الشهداء، فى هذه الليلة طلبت من ضابط الجيش توزيع السلاح على الناس ، وغادرت المستشفى ومعى ١١ فردا نحمل ثلاث أر.بى.جى وصندوقين من قاذفاتها وثلاثة صناديق ذخيرة، وحوالى عشرين بندقية آلية، ولم أستطع مقابلة مدير الأمن أو نائبه ، فلكل امرئ يومئذ شأن يغنيه، ووضعت خطة الدفاع عن المدينة لمجموعتى بعد أن قسمتها إلى مجموعتين.

ذهبت إلى الجزء الثانى من مجموعتى فى الكمين عند المحافظة، فأخبرونى بسماعهم أصوات مدرعات ، طلبت منهم التقدم إلى قصر الثقافة،وجدنا دبابة تتحرك أمام المدرسة الثانوية، أطلقنا عليها قذائف ال آر بى. جى فاشتعلت وقفز منها الجنود، اشتبكنا معهم فى قتال شرس، ساندتهم مدرعة فاستشهد واحد منا، للأسف لم نكن نعرف اسمه لأنه انضم إلينا فى الصباح فقط، أصيب آخر اسمه صلاح ثم استشهد بعد أن نقلناه إلى المستشفى ، وتم دفنهما تحت اسم مجهول، حدث ذلك مع الكثيرين من الجنود والمدنيين الذين قاموا بأعمال بطولية، استشهدوا دون أن يتعرف عليهم أحد..

استطعنا منع مدرعات العدو من التقدم من طريق مبنى المحافظة، عرضت على من معى أن يضطروا أخذ بالرخصة فرفضوا جميعا.

فى الخامسة مساء ذهبت إلى الجزء الأول الموجود فى ميدان الأربعين،وجدت أنهم اشتركوا فى أعمال مقاومة العدو. فقام عبد العال محمد عبد العال بضرب مدرعتين بإصابات مباشرة، وكان يستره بالبندقية الآلية عبد العزيز على أحمد، كما أصاب محمد عثمان السواح دبابة إصابة مباشرة، وضرب كل من طلعت عبد العزيز سيف ومحمد نجيب أحمد ومحمد خلف خليفة كل من نزل من الدبابات ، بعد سماع هذه الأخبار الرائعة تعرفت على اثنين انضما إلينا وهما حافظ شاكر محمد وكان رقيبا بالمطافىء، وعبد العزيز على أحمد مجند بالجيش، وعند المساء تقابلت مع العميد عادل إسلام، وطلب منى التوجه بالسيارة إلى إحدى العمارات التى كان بها مخزن كبير للذخيرة، بيد أن الظلام حال دون ذلك، وسمعت الحاج حافظ سلامة وهو يرد على المحافظ ويرفض تسليم المدينة. تلك بطولة تحسب لهذا الرجل المدنى الذى لم يحمل سلاحا فى حياته، ولكنه كان وراء كل من حمل السلاح ودافع عن السويس.

مع أول ضوء ليوم ٢٥ أكتوبر ذهبت بسيارة الجندى سيد محمد عيسى إلى العمارة، ساعدنا بعض المتطوعين فى تحميل خمسة وثلاثين صندوقا من قذائف ال آر بى. جى،

طفت بالسيارة فى الشوارع طالبا كل من يجيد استخدام ال آر بى. جى، توجه إلى المسجد عشرات المتطوعين من الجيش والشرطة والأهالى ، فى الواحدة ظهرا وزعت مجموعتى على ثلاثة كمائن، الأول فى منطقة الهويس، والثانى فى نهاية شارع الجيش بناحية المثلث، والثالث توجهت معه بالسيارة إلى أمام المدرسة الثانوية العسكرية ، ما إن اقتربنا من العساكر حتى سمعنا صوت دبابة قررنا ضربها ال آر بى. جى ذلك السلاح الذى أثبت فعالية رغم أنه سلاح للمشاة يضرب من الوضع مرتكزا أو بلا ساتر، كنا نستر من يضرب به بالبنادق الآلية لنوفر له الراحة النفسية، أصبنا الدبابة وجنودها الفارين إصابات مباشرة، ويرجع الفضل إلى البطلين المجندين السيد مأمون أحمد ومحمد خلف خليفة، غيرنا مكاننا، لكن بعد قليل انهالت علينا القذائف من جميع الاتجاهات، فأصيب مقاتل واستشهد آخر.

بعد مغرب يوم السبت ٢٧ أكتوبر قابلنى بالمسجد الرقيب مصطفى عجمى وكان متطوعا بالجيش وأخبرنى بوجود بعض قوات العدو على العمارات أمام المدرسة الثانوية العسكرية، وأنهم قاموا بنصب مدافع نصف بوصة، بذلك ظهرت خطة العدو، يريد احتلال أكبر قدر ممكن من الأراضى - قبل وصول قوات الطوارىء الدولية يوم ١٢ أكتوبر - للمساومة عليها، حاولت مقابلة المحافظ أو مدير الأمن فلم استطع حتى الاتصال بهما، شرحت للحاج حافظ سلامة خطورة الموقف ،

طلب منى التنسيق مع محمود عواد قائد مجموعة منظمة سيناء، لكنه كان فى مهمة رسمية، رأيت تجمع أكبر عدد من الأفراد ومعهم أسلحتهم واحتلال الأماكن التى أمام المدرسة الثانوية العسكرية حتى وصول قوات الطوارئ الدولية، والتعامل مع العدو بمنتهى الشراسة والعنف، وتم كل شىء وفق الخطة، وكان يلازمنى - بصفة دائمة - المجند محمد خلف وطلبت منه فى الساعة العاشرة أن يمر على التشكيلات ، بعد عودته ذكر أن الحالة المعنوية مرتفعة، ولم تظهر أية أهداف، ولكنهم فى حاجة إلى الماء والسجاير، أحضرنا أربعة دلاء ماء من مبنى المحافظة وطلبت أربعين علبة سجاير من تاجر أعرفه فى الأربعين ورفض أن يحصل على ثمنها أثناء العودة قابلنا نبيل الذى أبلى بلاء حسنا فى تعمير الخزن.

استمر إطلاق النار فى فترات متعددة وقمت بالمرور على التشكيلات مشجعا لهم ، فى الرابعة شاهدت أحد المدنيين يجرى صارخا ، أمرت بإيقاف النار، أخبرنى أنه يعمل فى شركة البترول ، وأن العدو احتجز أكثر من مائة شخص فى مسجد الشبان المسلمين على بعد مائة وعشرين مترا من مبنى فيللا الرى، لاستخدامهم دروعا بشرية، وأنه هرب فى غفلة من الحراسة وأكد أننا قتلنا منهم الكثير، ونبه إلى وجود دبابة خلف سور المدرسة، فقررت تدميرها ، ولأنها خلف ساتر فمن المستحيل إصابتها بصاروخ، لابد من استعمال

قنبلة فى عملية انتحارية... ودمرها نبيل!!... وقبل العدو شروطى.

حضرت أربع سيارات تابع للأمم المتحدة ، ومعهم ضابط اتصال برتبة رائد، وثلاثة مدنيين من المحافظة، كنا فى وضع المنتصر، أفهم ضابط الاتصال قائد المراقبين أننى القائد العسكرى واتصل الرجل بالقائد الإسرائيلى عن طريق اللاسلكى ، عاد ليقول لى إن الإسرائيلى يطلب وقف إطلاق النار مع السماح لهم بسحب جثث القتلى والمصابين إلى ناحية البحر بجوار ڤيللا الرى، أعلم أنهم يهتمون بسحب القتلى مهما كانت التضحية ، اشترطت إخراج جميع المدنيين المحتجزين بمسجد الشبان المسلمين، وافق القائد الإسرائيلى وفى خلال خمس دقائق امتلأ الشارع الموصل للمحافظة بعشرات المدنيين وهم يهللون ويكبرون ، حددنا لقائد المراقبين الخطوط التى يجب أن يقف اليهود عندها فوافقوا ، أصبحت ڤيللا الرى - التى كانت مقر قيادتى مقرا للأمم المتحدة.

جمعت أفراد مجموعتى فهنأ كل منهم الآخر، وانصرف كل مقاتل إلى وحدته وهو يشعر بالحزن لفراق إخوته، وتمسك بعضهم بالبقاء معى فرحبت بهم، ربما لم يشاهد أحد هؤلاء الذين قاموا بأعمال بطولية، أما الفضل الأكبر فيرجع للشهداء الذين لم أتعرف على أسمائهم ، حاربوا بإيمان ولم يشغلهم إلا الرغبة فى التضحية، من الظلم أن نجعل البطولة حكرا على شخص بعينه، أو نلبس ثوبها لغير أهلها، لن أنسى واحدا منهم، ولن أنسى مكانا قاتلنا به.

قلت لأفراد المجموعة إنه لابد من القيام بعملية انتحارية لتدمير الدبابة، قبل أن أتم كلامى أصر نبيل على القيام بالعملية، شرحت له طريقة استخدام القنبلة (م . ر) المضادة للدبابات ، طلب أن أقوم أنا بستره، نبهت عليه ألا يفك تيل الأمان! إلا حين الوصول إلى النهاية، وأن يظل ضاغطا على ذراع القنبلة إلى لحظة إلقائها فى فتحة الدبابة أو على البرج وأن يعود مسرعا ملتصقا بالسور.

كانت لحظات رهيبة

سترته بنيران بندقيتى الآلية.

دمر الدبابة بمن فيها وعاد ليستقبله كل زملائه بالأحضان.

بدأ العدو على الفور بإطلاق النار من ناحية الهيش، قمنا بالرد عليه ، قتلنا عددا كبيرا ، كانت المجموعة فى قمة الحماس والاندفاع، سقطت علينا دانة مدفع هاون، أصابت ثلاثة كان من بينهم نبيل، لم أكن أعرف أسماء الآخرين.

ـ مفيش حاجة يا نبيل..

أنت كويس إن شاء الله

نقلت الثلاثة إلى المستشفى، استشهد نبيل..

كان شابا جميلا ونظيفا..

أشقر الشعر..

أخضر العينين..

دفناه ليلا... كتبنا على قبره : مجهول ......

المادة الوثائقية: كتاب «السويس مدينة الأبطال» لمحمد الشافعى

كيف نبرر غيابى عن المدينة؟.. أعمل مصورا ولدى استوديو ، أصور حفلات وندوات فرقة «ولاد الأرض»... أصور الناس في الشوارع... فى المقاهى .. الجميع يعرفوننى بحكم مهنتي، توصلنا إلى تلفيق قصة، نوجه بها الأنظار إلى ليبيا وأكون أنا فى القاهرة أتلقى فرقا على أحدث مستوى فى الشفرة والتقاط الإشارات واللاسلكى والتعامل مع أسلحة العدو، وسرت إشاعة فحواها أنى ذهبت إلى ليبيا لشراء بعض الأفلام ومعدات التصوير، عقب استشهاد مصطفى أبو هاشم، تولى محمود عواد قيادة المجموعة عام ١٩٧٣ طلبت منه القيادة ترشيح أحد أفراد مجموعته لإرساله خلف خطوط العدو.، رشحنى كأول من يذهب ، يلينى الشهيد أشرف عبد الدايم، صدرت الأوامر

بعبورى القناة فى ١٤ سبتمبر ١٩٧٣، حرصا على سلامتى طلب منى ألا أخبر أحدا، لو استشهدت كيف سيعرف أهلى؟... أخبرت الشيخ حافظ سلامة، وشجعنى.. توكل على الله، دعا لى بالتوفيق.

ارتديت ملابس الأعراب، عبرت بقارب من عند فنار أبى الدرج، جنوب السخنة بحوالى ٢٥ كم، كان فى انتظارى أحد عرب سيناء على شط خليج السويس، اصطحبنى إلى منطقة خلف ممرات متلا، كان يمر على كل بضعة أيام، وكانت التعليمات ألا أسمع إلا إذاعة صوت العرب، بدأت إرسال الإشارات عما أراه من تحركات لقوات العدو، الجهاز حساس يرسل إلى بعد ٥٠٠ كم، كثيرا ما استرجعت الماضى، وتأملت حياتى، كنت لسنوات طويلة بطل السويس فى الدراجات والرماية، كنت أرتحل بالدراجة إلى الإسماعيلية والقنطرة وبورسعيد، أدين بالشكر للضباط الذين دربونا ، لا أنسى مختار الفار، هو ابن حسين الفار نجم ساعة لقلبك، عمه شريف الفار لاعب نادى الزمالك، حصل على المركز الثالث فى مسابقة عالمية أجريت فى أمريكا بين فرق الصاعقة، كانت الفرق تمثل ثلاثا وثلاثين دولة، كل دولة اختارت من بين فرقها ثلاثة أفراد ، فى بيته وجدنا له صورا مع تماسيح وثعابين شرسة، كان الرجل يقول لزملائه: إنى أتحدى بهذه المجموعة الصغيرة أية كتيبة صاعقة، كانت لنا قاعدة فى منطقة السخنة، وكان يقيم معنا، يرفض الجلوس

على المكاتب المريحة، يختم القرآن كل أربعة أيام مرة، يؤمنا فى الصلوات ، يرجع إليه الفضل فى تحملى للفترة التى عشتها فوق جبل عتاقة ، كان يصحبنا إلى جبل الجلالة عند الزعفرانة ، وعند فنار أبى الدرج، نتسلق الجبال حتى يصبح السحاب تحت أقدامنا . ننزل من فوق الجبل لنمشى فى المياه ونحن نحمل السلاح، فوجئت يوم ٦ أكتوبر بسماع البيانات العسكرية، لم أصدق، رأيت الطيران المصرى يمر فوق رأسى، كدت أهلل، فى الأيام التالية، بدأ دخان المعركة يقترب منى: الله أكبر ، كنت أرسل كل شىء عن تحركات العدو.

***

أعظم مكافأة حصلت عليها هى التفاحة

بعد أن كنت أشاهد انسحاب قوات العدو، لاحظت يوم ١٥ أكتوبر أن القوات الإسرائيلية تتحرك بكثافة فى اتجاه القناة!... تلقيت أمرا بالعودة إلى القاهرة، اقترح الدليل أن نعود من ناحية الإسماعيلية، فالطرق أكثر قربا، وصلنا إلى شط القناة يوم ١٧ ليلا، عبرنا المعبر الذى أقامه العدو عند الدفرسوار ، كان ينسحب ليلا خشية هجوم الفدائيين المصريين، ويعود إلى المعبر مع أول ضوء ليحتل الموقع مرة أخرى، قبضت علينا القوات المصرية. كانت لحيتى طويلة، وشكلى تغير كثيرا، من استجواب إلى آخر ، ومن ضابط إلى آخر حتى وصلت إلى قائد اللواء، اضطررت للاتصال بقيادتى عن طريق الجهاز ، طلبت القيادة من قائد اللواء أن يرسلنى

بسيارته الخاصة إلى القاهرة، ظن القائد أنى رتبة كبيرة.

بعد الثغرة فشلت القوات الإسرائيلية فى اختراق أبى عطوة إلى الإسماعيلية ، المنطقة صحراوية مفتوحة من عند أبى سلطان حتى العباسة فى الشرقية ، العدو لا يملك كثافة بشرية لتغطيتها، أمام المقاومة الشرسة عاد فى اتجاه السويس والخليج، لا بد أنهم قالوا إن المسألة ملمومة فى هذه المنطقة، اقتربوا من السويس وهددوها، رأت القيادة الحصول على معلومات من داخل السويس. رشحنى بعض الضباط واعتبروها فرصة لرؤية أهلى، نزلت من السيارة عند الكيلو ٦٥ على طريق مصر السويس، رافقنى دليل يعرف كل تفاصيل جبل عتاقة، كان معى كاميرات تصوير وجهاز لاسلكى وشفرة وبعض الطعام، تعيين قتال مكون من كرتونة بها ١٢ علبة، فالمهمة سريعة وقصيرة، عند جبل عتاقة شاهدت نفس مناظر ٥ يونيه ١٩٦٧، سيارات مدمرة ، وجنودا منهارين، لم أسمع سوى: اليهود ورانا !!... لم تكن لدى أية فكرة عن تقدم اليهود إلى السويس ، ربما رأت القيادة ألا تخبرنى خوفا من التراجع ، فوق الجبل وجدت جنودا كثيرين ماتوا من التعب، اعتقدوا أن الجبل أقصر طريق، وكان الطريق شاقا، عرفت كل الحقيقة، كانت مهمتى أن أدخل السويس لطمأنة القيادة على الأحوال داخل المدينة، عند استراحة الملك فاروق فى صنع السماد فى بطن الجبل رأيت عربات ومعدات ومدرعات إسرائيلية.. بين كل مركبة

وأخرى ما يقرب من نصف متر فقط، كيف سأعبر إلى السويس، اتصلت بالقيادة فأمرونى بالبقاء فى مكانى إلى أن تصلنى أوامر أخرى.

هنا بدأت أصعب أيام حياتى، مائة يوم وحدى على جبل عتاقة، اسمى عبد المنعم قناوى، مولود فى السويس، تاريخ ميلادى ٢١ فبراير ١٩٤٥، دخل والدى المدينة عام ١٩٢٤. مسقط رأسه فى مركز قفط محافظة قنا، اشتغل بقلم المحضرين فى محكمة السويس ، حين تركت المدرسة الثانوية عشقت التجارة، كنت أذهب إلى غزة لشراء البضائع، أيام الوحدة مع سوريا كان التجار السوريون يأتون إلى السويس، بعد الانفصال وجدنا بضائع سوريا فى غزة، دفعنى حب الاستطلاع لزيارة خط الحدود عند منطقة بيت حنون، فوجئت بخط أبيض وكشك خشبى وجنود دوليين ، ولوحة تمنع المدنيين غير المصرح لهم من العبور، المصرح لهم فقط هم الذين يعملون فى إسرائيل، من هنا تولد عندى الحس الوطنى، كيف يمنع المرء من دخول أرضه؟!!..

***

فى أكتوبر ١٩٧٤ زارت السويس سيدة مصر الأولى، منحت كل واحد منا شهادة استثمار بعشرة جنيهات.

***

أثناء هزيمة ١٩٦٧، وبصورة تلقائية ، تحول أهالى السويس جميعا إلى جنود ، اشتركنا فى استقبال العائدين

من سيناء ، كنا نعبر إلى البر الشرقى للقناة من منطقة (الميريكاب) فى لسان بور توفيق، البعض وصل إلى منطقة عيون موسى على بعد ١٠ كم داخل سيناء، نتوجه بالجنود إلى الأماكن التى تحولت إلى مستشفيات ميدانية، بعض المصابين كانوا بحاجة إلى عمليات خاصة، كانت البواسير من أكثر العمليات، تسببها كثرة المشى، كل سويسى كان يؤدى عملا حتى الصبية، تولوا كتابة الخطابات وإرسال التلغرافات لطمأنة أسر الجنود، خرجت من المقاومة الشعبية مجموعة القوات الخاصة... مثل الصاعقة والمظلات فى القوات المسلحة... كنا نتوجه إلى منطقة (كورال بيتش) فى طريق السحنة لتلقى التدريب الراقى على عمليات الضفادع البشرية، فى أواخر يوليو ١٩٦٧ تكونت - أيضا - قوات الدفاع المدنى للدفاع عن المراكب الراسية فى الميناء.

كنا جميعا نبحث عن دور أكبر .

بعد التدريب الراقى طلبوا منا أن نكون فى خط المواجهة الأولى.. عند منطقة بور توفيق، كان المتطوعون فى هذه المنطقة هم نواة جماعة الفدائيين التى بدأت العمل فى أوائل ١٩٦٨، كنا نقوم بدوريات ليلية تتجول داخل خليج السويس مستخدمة لنشات هيئة القناة لحماية الميناء وما بها من مراكب، كانت الميناء تطفئ أنوارها ليلا خشية تسلل جنود العدو لزراعة الألغام .. كنا نعود مع أول ضوء..

وكنا جميعا نبحث عن دور أكبر

صعدنا إلى مكتب منظمة فتح، أظن أنه مازال بجوار سينما أوديون بالقاهرة.. شارع عبد الحميد سعيد. طلبنا من المسئولين الاشتراك فى المقاومة. تعللوا بأننا لانعرف جغرافية مناطق العمليات ، مما قد يعوق عمل رجال المقاومة الفلسطينية . أعطونا الأعلام الفلسطينية.. وخرجنا حيارى!!..

علمت مخابرات جنوب القناة بما أقدمنا عليه، فكروا فى القيام بنفس العمل فى سيناء. كانت سيناء غريبة علينا، لم يكن يذهب إليها إلا العاملون بها، وبتصريح خاص من حرس الحدود، قامت المخابرات باختيار بعض الشباب لتكوين (منظمة سيناء العربية) تعاون أهل سيناء معنا، بدأت المنظمة بالزملاء عبد المنعم خالد وغريب محمد غريب ومحمود عواد ومصطفى أبو هاشم، طلبت منهم تجنيد بعض الأصدقاء ممن يثقون فيهم، ويتمتعون بمواصفات خاصة، بدأنا ننضم إلى المنظمة، كل فرد يضم آخر يكون مسئولا عنه.

وجاء الدور الأكبر

***

فى أكتوبر ١٩٨٠ كرمنا المشير أحمد بدوى فى حفل أقيم بنادى ٦ أكتوبر بالقاهرة ومنحنا نوط الامتياز من الدرجة الأولى، ووسام نجمة سيناء.

***

جلسنا ننتظر الدورية، عبرنا ليلا والدورية لا تمر إلا فى

الصباح، تأخرت عن موعدها المعتاد، العدو يستخدم إمكانيات الحرب الإلكترونية، قام بتركيب سلك مثل الشعر موصول بلغم، «طوربيد بنجلوز» «اللغم موضوع على قائم خشبى إذا لمس السلك يعطى إشارة فورية لوحدة المراقبة، وينفجر اللغم على شكل نافورة، قمنا بتأمينه وقص السلك ، يبدو أن خللا جعل الإشارة تصل إلى نقطة العدو ٤٩ على بعد ٢ كم منا، كان القائد يراقبنا على البر الغربى ، اتصل بنا من خلال الشفرة المتفق عليها، المألوف أن يصحب الدورية جنديان يجلسان على جانبى السيارة الأمامية ، يراقبان الطريق ، ويجسان الأرض بحثا عن الألغام.

قال القائد:

فى الطريق إليكم جاموستان وجمل، أمامهم مصطفى أبو هاشم وسعيد البشتلى.

عرفنا أن سيارتين ودبابة - وأمامهما جنديان - فى الطريق . كان يوم الأربعاء الخامس من نوفمبر ١٩٦٩ باردا وعاصفا، وضعنا العبوة المتفجرة وسط طريق الدورية. كانت الخطة أن ننسف السيارة الأولى لتصطدم بها الثانية، نتيجة للإشارة التى وصلت للعدو عند قص السلك، أرسل خمسة كلاب تتشمم الطريق، الكلاب إذا شمت الهواء الآتى من غرب القناة محملا برائحة الآدميين تكشفنا، تدخلت قدرة الله، وتوقفت الرياح تماما عند مرور الكلاب، وقفت تتشمم العبوة، تبول أحدها فوقها، كانت تعليمات الشهيد مصطفى أبو هاشم

قائد العملية ألا نطلق النار إلا إذا بدأ العدو بالضرب..

بدأت العمليات صغيرة إلى حد ما، كنا نعبر القناة ليلا لزرع الألغام فى المدقات ، غايتنا إزعاج العدو، كانت منطقة عملياتنا تقع جنوب البحيرات وبور توفيق، امتد العمل جنوبا حتى شمل شرم الشيخ ورأس محمد، تطور بالهجوم على كمائن العدو ليلا، بعد نجاحنا فى العديد من العمليات ، طلب منا الرائد حسين دراز أن تتم إحدى العمليات نهارا كى تحدث دويا، وأن تكون مهاجمة دورية للعدو على بعد ٨ كم شمال السويس تمر الدورية كل يوم إلى بور توفيق لتوزيع جنود الخدمة على شط القناة، تفاوض الرائد دراز مع قائد الجيش طالبا معاونة المدفعية فى تغطية انسحابنا ، تعذر ذلك، فبدأنا باستطلاع المكان بواقع اثنين منا فى كل ليلة، قبل التنفيذ بيوم واحد سألنا القائد عن استعدادنا . فوجئ عندما علم أن الشهيد مصطفى أبو هاشم ومحمود عواد عبرا بالفعل إلى البر الشرقى.

وصلت دورية للعدو يتقدمها ثلاثة من سلاح المهندسين مترجلين على غير المعتاد، كانوا يشكلون رأس حربة، فجأة انكفأ جندى المنتصف على العبوة مباشرة يفحصها بجهازه، لو فجر مصطفى العبوة لقتل الجنود، وتعرضنا نحن لأكبر الأخطار.. أقلها إصابتنا بالصمم من شدة الانفجار، فى أقل من الثانية ، أطلق الشهيد مصطفى النار على الجندى فقتله، اختلفت الخطة تماما، أصبح الالتحام وجها لوجه، قتلنا ثمانية

وأسرنا جنديا عملاق الجثة، من الطرائف أن جنود العدو قفزوا من السيارات المغطاة بالمشمع.. كنا نعتقد أنها فارغة.. قفزوا إلى داخل حفر برميلية، رأى الشهيد سعيد البشتلى أحدهم، وهو يقفز إلى حفرة رافعا مدفعه الأوزى فى فزع، قذفه بقنبلة وكأنه يلعب البلياردو.

عبرنا فى زورق مطاطى، مجموعة من زملائنا كانت على البر الغربى لحمايتنا، بعد العودة هنأنا القائد، ذكر أننا وقعنا فى خطأين: الأول تنفيذ العملية فى تسع دقائق، والمقرر أن تتم فى عشر، الثانى أننا قاتلنا من الوضع واقفا ، مما يجعلنا هدفا سهلا لمن يأتى من العمق، تركنا منشورات باللغة العبرية ورد بها أن هذا أول عمل ، وعليهم أن ينتظرونا فى أماكن أخرى على أرض سيناء، ظهرت مانشيتات الصحف... فى اليوم التالى - فى مصر والدول العربية، تشيد بأكبر عملية عبور فى وضح النهار،كانت هذه العملية بداية لتطوير عمليات حرب الاستنزاف.

فى نوفمبر ١٩٨٢ كان اللواء بكير محمد محافظا للسويس، كنا نعرفه منذ حرب الاستنزاف، كان قائدا للقطاع الريفى، منح كلا منا شهادة استثمار بعشرة جنيهات.

جلست على جبل عتاقة أراقب الموقف، رأيت دبابات العدو تدخل ميناء الأدبية. تتحرك فى سرعة كبيرة فى اتجاهات مختلفة للتمويه، أثناء إرسال إحدى الرسائل دخلت معى على الخط بنت إسرائيلية، راحت تعاكسنى ثم هددتنى بلهجة

عربية مكسرة، فجأة سمعت صوت طائرة هليكوبتر على الأرض أسفل الجبل، كان معى الدليل الذى يعرف الجبل كما يعرف كف يده، عندما سمعت صوت الطائرة أغلقت الجهاز اللاسلكى. من الممكن أن تحدد المكان وتهبط عليه مباشرة بمجرد التقاط الإشارة، دخلت ومعى الدليل إلى جحر ضيق، لو خيرت الآن بين الحياة والموت لما دخلته أبدا،مثل الفرس دخلنا، وانكمشنا خلف صخرة، دقائق وأصبحت الطائرة خمسا من طراز «بل ٥٠٥» عند باب كل طائرة رشاش نصف بوصة لضرب جنود المشاة، فتحت الطائرات النار على الجبل، بعض الطلقات اصطدمت بالصخرة، طلب منى الدليل أن نسلم لأنهم كشفونا.

طمأنته:

لو كشفونا لنزلوا وقبضوا علينا.. إنهم يضربون عشوائيا.

قرأت كل ما حفظته من آيات القرآن الكريم، حل الظلام وهبطت الطائرات، تركنا المكان، فى الصباح يفتشونه، انسحبنا فى اتجاه ميناء الأدبية عند وادى الناقة، سرنا طوال الليل، الدليل بسرعة مدربة،وأنا ألهث خلفه، فى الصباح راقبنا المكان الذى كنا فيه، صعدت الطائرات مرة أخرى على هيئة تشكيل مروحى، نزل الجنود وحاولوا اقتفاء الأثر، كنا ندرك ما سيحدث فسرنا على الرمل والزلط والحجارة حتى تضيع آثار أقدامنا، وضعوا معدات فوق الجبل، فى منتصف نوفمبر مدوا طريقا من أعلى الجبل إلى أسفله، مازال الطريق

موجودا حتى اليوم عند الكيلو ١٤ شمال السويس، راقبت كل التحركات ، وبعثت بها - أولا بأول - إلى القيادة.

حين نفد طعامنا بحثنا فى الجبل عن شىء يؤكل، صادفنا مخزنا لكتيبة رادار وبه كمية من الأطعمة الجافة، قررنا توزيعها على أماكن مختلفة، بين كل كمين وآخر ساعتان من السير ، وضعنا علامة فوق كل مكان، استولت القوات الإسرائيلية على المخزن الرئيسى عند إقامة نقطة حراسة على الجبل، نفدت كمائن الطعام أيضا، كانت هناك دوريات سير من الصاعقة بعد عام ١٩٦٧، تبدأ من أنشاص حتى عتاقة، بحثنا عن بقايا الخبز والبسكويت المتخلف عنها، أما بالنسبة للماء فاعتمدنا على الندى الذى ينزل فى الصباح.

فى عام ١٩٩٥ كان اللواء مصطفى صادق محافظا للسويس ، للحق كان يقدر ما قمنا به ويحترمنا، وعد أن يكرمنا كل عام ، وأعطى لكل منا شيكا بمبلغ مائة وخمسين جنيها.

فى نفس العام سجل الصحفى محمد الشافعى حديثا معنا ، ونشره فى كتابه: «السويس مدينة الأبطال» وكان الفصل الذى خصصه لى بعنوان : «الغريب فى زمن الغربان».

أديت مهمتى طوال فترة حصار السويس، مائة يوم حتى التاسع والعشرين من يناير حين انتهى الحصار، نزلت إلى السويس وتوجهت مباشرة إلى مكتب المخابرات، أردت أن

أرى أسرتى، أخبرنى القائد أن زملائى منعوا العدو من دخول المدينة، وأنهم فعلوا الكثير فى الرابع والعشرين من أكتوبر، وهم يقيمون الآن معرضا للغنائم عند قصر الثقافة، لم يخبرنى بالشهداء حتى لا يصدمنى ، اصطحبنى إلى المعرض، قابلت الأخ أحمد العطيفى بالأحضان والبكاء ، سمعت الأخ محمود طه يسأل الأخ ميمى سرحان:

مين اللى بيحضن عطيفى ده وبيعيطوا؟

أجهشت فى البكاء، أصدقائى لا يعرفوننى، فى الحق كان شكلى غريبا، شعر رأسى وذقنى طويل وملابسى رثة، كان رئيس الوزراء ممدوح سالم يحضر الاحتفال ومعه بعض من وزرائه، صرخ الزميل محمود عواد:

تعالوا شوفوا الفدائى عبد المنعم قناوى اللى عمل المعجزات.

أحاط بى الناس والصحفيون والمصورون وكأنهم لقوا لقية، نبه قائد المخابرات زملائى إلى سرعة إكرامى، أتوا لى بنصف بطة، كانت أجمل هدية بعد التفاحة، وإن جاءت قبلها، طرت لأرى أمى، لم تصدق عينيها، راحت تتشممنى وتتحسس كل جزء من أجزاء جسدى، أصرت على حلاقة شعر رأسى ولحيتى، تجمع أهل الحى حولنا ، كانت المفاجأة أنى وجدت أمى تحتفظ لى بتفاحة، وزع المسئولون على كل مواطن فى المدينة تفاحة أثناء فترة الحصار، رفضت أمى أن تذوق طعمها، احتفظت لى بها حتى أعود..وعدت.



قنــوط

شاهدته يتلوى تحت شجرة كبيرة... شجرة من تلك الأشجار التى تصطف على جانبى الطريق، يرجع عمرها إلى آخر مراحل اهتمامنا بالأشجار .. تزيين شوارعنا بالخضرة.. انساب كأنه يستيقظ من نومه... يستقبل الصباح مثلى، تركته فى حاله، اتجهت إلى الرصيف المقابل كعادتى كلما وصلت إلى هذه النقطة.. لم أدهش عندما لحظته ينساب انسياب نهر هادئ مع خطواتى... حتى امتد بعرض الطريق، بدايته مازالت تحت الشجرة... أما رأسه فقريبة منى... كان لاهيا عنى كما كنت لاهيا عنه..

كل يسير فى حاله.

أنا وهو وبقية السائرين .

نفكر فى همومنا الخاصة، التى هى - فى ذات الوقت...

ولنفس السبب ـ هموم عامة.

تحركت رأسه على بعد شبرين من حذائى.. كبحت رغبة حذائى فى سحقها، ولم أسحقها؟... هو يسير فى حاله.. وأنا أسير فى حالى... وبقية خلق الله يسيرون فى حالهم... لماذا العداء، وهو ليس الدواء؟... ثم إنه ليس عدوى الحقيقى. عدوى الحقيقى من يتركه يسعى فى الطرقات، لا فائدة.. لا فائدة من القضاء عليه بعد أن كثرت الشقوق فى جدران بنياننا، علينا ـ أولا ـ أن نسد جميع الشقوق التى تسمح للتعابين والعقارب والأبراص والوزغات والأورال والسحالى والعرس والفيران، بالتوالد... التكاثر ، عرضوا على شاشة التليفزيون فيلما عن تكاثر الفيران، قال المعلق إن زوجا من الفيران يصبح بعد أربعة أشهر مليون فار، كانت الكاميرا تركز على ثقب أكياس السكر وأجولة الدقيق وعلب كرتونية بها مواد أخرى حتى خرب المخزن تماما .

علينا أن نرمم البنيان.. نعم نرممه لا نهدمه... مقولة الهدم من أجل البناء، ثبت خطلها عندنا... جميع الهدامين رفعوا هذا الشعار. نهدم ـ أولا ـ ثم نبنى ... ويتم الهدم ولا يتم البناء... تناثرت الردوم والأنقاض، اتفقوا مع المقاولين على نقل الردوم على نفقتنا .. وقبضوا نصف قيمة المناقصة، لم يكفهم بيع الأنقاض لحسابهم واعتبارها ردوما يتم نقلها على نفقتنا ، أثرتهم عملية نقل الردوم فقرروا زحزحة بعض التلول المحيطة بالمدينة على نفقتنا ، ألسنا المستفيدين من اتساع

الرقعة الصحراوية بعد رفع التلال التى كانت تصدعنا الزوابع والأعاصير الرملية؟!! من غير المستبعد أن يفكروا فى زحزحة المقطم بأية حجة، وهل أعوزتهم الحجج عند قطع الأشجار العتيقة، ووضع شعار: «ازرع شجرة» مكانها؟!... تحولت البلد إلى خرابات ومنازل آيلة للانهيار تتخذ أوكارا، يبدو أنهم لن يفكروا فى البناء - إذا ما فكروا فيه - إلا بعد أن يحيلوا البلد كلها إلى خرابة كبيرة، أتعرف نكتة المخنث الذى اشترى عمارة جميلة فهدمها ليجعلها خرابة؟!...لكن ذلك المخنث كان يتصرف فيما يملك، لا فيما نملك ولا يملك.. علينا أن نرمم البنيان، إذا انتهى الترميم نبدأ البناء الذى نتغياه فى مناطق جديدة. إذا اكتملت الأبنية الجديدة وثبتت صلاحيتها، نهدم القديم وحده... وأصبحت إثارة الدراسة دروسا للأجيال، عدوى الحقيقى المباشر هو المخرب الأول، يقولون عنه أيضا: الأوحد ، أحيانا يرجعون نسبه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم -: الحسيب النسيب.. ثم اكتشفوا أن له تسعة وتسعين اسما يحفظونها عن ظهر قلب... الأوحد!!.. الهادم الأوحد.. والمدمر الأوحد..

عدوى الحقيقى المباشر لا أناله... لا أراه... مرة أخذونا لمقابلته.. لا أذكر المناسبة ، كل أيامنا أصبحت مناسبات وأعيادا، الجماهير تلهج باسمه حتى تتهاوى، وهى تتمايل تنحت لهيب الشمس ، وتتكدس فى ساحة عارية أمامه ، وعلى جانبى الطرق التى يمر بها ، منذ الشروق وحتى الغروب لا

فرق بين شيخ وصبى.. ولا بين بين.. أخذونا قسرا لنمثل
الطوائف والمهن... لتكملة الديكور لا أكثر... الزينة فى يوم
الزينة... قسرا إلى قصره، ذهبنا إليه فى مدينته العسكرية:
مدينة واسعة شاسعة تكتفى ذاتيا ساعة العسرة، لا أذكر عدد
مرات التفتيش التى خضعنا لها، بعد جهد جهيد من الرمح
فى شوارع مدينته العصماء، توقفت الحافلات أمام حصن
حصين، هو - فى ذات الوقت - قصر عظيم، اجتزنا الممرات
والردهات إلى أن استقر بنا المقام فى قاعة فسيحة تناثرت
فيها الثريات والتحف واللوحات و... تصدرت المدخل صورة
ضخمة طالعنا فيها جالسا وعلى إحدى ركبتيه طفلة صغيرة،
أظهرته اللقطة - كما يود أن يظهر فى أى مكان وكل مناسبة -
متعاليا متعاظما... حتى مع الطفولة!!... بدا متبلدا لامباليا
حتى وهو فى حضرة البراءة، الكل يكون فى حضرة البراءة...
والبراءة لا تكون فى حضرة أحد... لكنها ظهرت كأنها فى
حضرته.. فى سجنه ، وكأنه غول لا يرحم عظامها الغضة...
الكاميرا لا تكذب... الكاميرا لا تكذب.. الكاميرا تسجل ما
أمامها، بانت الطفلة كالكرة الصغيرة الملقاة على ركبته فى
إهمال... بانت كما لو كانت تخشى الانزلاق.. متهيبة
رافضة وكأنها شعبه الذى يلعب به، أما شبه الابتسامة التى
علت وجهها فكانت ابتسامة مأمورة.. وجلة .. الأوحد يبتعد
عنها بكرشه البارز الشاذ فى تعظام كاذب... وبلادة لا
يحسد عليها ، إن الموقف مع الأطفال يختلف تماما ياسيدى

القائد الملهم... فما بالك وهم من لحمك ودمك... كم من رءوس للكبار... الكبار الكبار... انحنت لتلتقط زهرة من يد طفلة... الموقف مع الأطفال يفعم بالحنان.. يتوج بالاحتضان..

ماذا تقول؟!.

هل يريد أن يخيفنا نحن؟..

يرعبنا نحن؟..

جائز..

ومع ذلك فتاريخه مع الطفولة شاذ غريب، فهو لا يرحم الأطفال بل يعذبهم بالصدمات الكهربائية، ونزع الأظفار،والحرق بالسجائر أمام ذويهم!!..

أهل علينا ببزته العسكرية ، وقد برزت الطبنجة من جانبه الأيمن.. لم نشعر بالرعب كما يريد، وإنما بالتقزز ... هيئته المستفزة أغرقتنا فى برك من القرف راكدة لزجة... يسير ويجلس ويستقبل ضيوفه كالدمى الخشبية المتحركة بلا روح... يعتقد أن العظمة والمهابة والجلال تكمن فى هيبته ، وهى لا تزيد على حركات صبيانية غير مشذبة لعظمة كاذبة، ومهابة مصطنعة ، وجلال زائف، يكشف عما بداخله، وداخله مستودع متناقضات غريبة شاذة، بلطجة وخور ... غرور ورعب. صلف وانهيار... ضحالة فكر وتضخم ذات، دهشت عندما سمعت هذه الدمية الخشبية تتكلم، كانت تصدر أصواتا مسرسعة مثل أصوات العرس لا تلائم قالبها الخشبى، شكل ذلك تناقضا كبيرا آخر، لن يحار علماء النفس

فى استخراج المواقف الدموية الشاذة، من هذه الهيئة المستلوحة الخربة المستفزة، لولا تربعه على أريكة حكم، وتحكمه فى قيادة دولة، وتسلطه على رقاب شعب، لحركته تناقضاته إلى مهاوى الإجرام الاجتماعى. أما وقد مكنته الصدفة من حكم شعب، فقد حركته هذه التناقضات ليصبح من مجرمى الحروب، وقاتلى الشعوب، من الذى صنعه وشحنه بكل هذه الشحنة الشريرة الرجيمة؟!... لا شك أنها عوامل نفسية... عقد ترسبت من قبل أن يصبح لصا صغيرا وقاتلا فى صباه، لكننا لا نعفى أنفسنا من المشاركة فى صنعه ، كما شاركنا فى صنع كل شيطان رجيم، خدع بعضنا فوهبوا أنفسهم له، ثم زج بنا جميعا فى السجون والمعتقلات، وفى أتون حروب لا طائل من ورائها، ليرضى غروره، وطموحاته المتوهمة، عدوى الحقيقى بينى وبينه تحكيمات وتحصينات لا أستطيع اجتيازها.

قبل الترميم علينا أن نقضى على المخربين الذين خربوا، أو تركوا ديارنا عرضة للخراب، كلما اجتزت الموانع قتلته، نعم قتلته... بيدى هاتين قتلته.. فى حجرة نومه قتلته... بين جنوده وضباطه قتلته... فى الاستعراض المهيب قتلته... كلما قتلته .. نعم قتلته. .اتضح لى... ربما أثناء المحاكمة المسلية... ربما ونحن فى انتظار تنفيذ الحكم ... ربما قبل القبض علينا... ربما أثناء التنفيذ والمدفع مصوب إلى صدره... اتضح لى أن العملية كلها ... كلها ... منذ التفكير

فيها... والتنظيم لها ... والاستعداد ... وتحين الفرصة... والتحرك ... والتنفيذ.. والقبض علينا... محاكمتنا ... ودفاع المحامين الحار عنا .. وإنصات القضاة المجندين... وتعليقنا كالذبائح من أرجلنا... واستقبال أعواد المشانق... اتضح لى أن العملية كلها ..كلها .. كانت تمثيلية!!... وأن الذى غذى روحى دون أن أشعر... ودربنى دون أن أدرى... ومهد لى السبيل... وحدد لى ساعة الصفر.. كان يستعملنى دون أن أشعر... أن أدرى.. أن أدرك... لتحقيق أهدافه.. أهدافه هو لا أهدافى أنا!!..

أهدافه هو..

لا أهدافى أنا..

وأهدافه هى تعزيز قرية نزلة السمان، حتى يزداد تسرب مجاريها إلى المنطقة المقدسة، فتتقوض أركان حامى حمانا... المتدثر بلوح تحتمس الرابع. يعلمون أن سبب مرضه هو مستنقع الرطوبة الراكد تحت قاعدته ، فهو يأنف الدنس، وقد فت الدنس فى عضده، وجعله عرضة لعبث الريح، اهترأت مفاصل قدميه، وأصاب الوهن عظام رقبته وصدره، ومازالوا يأتمرون ، فى المؤتمر الثالث اختاروا سبعة من الحكماء لتحديد الداء ومعرفة الدواء، قبل سقوط الرأس فوق الرقبة التى تعانى من نحر شديد، والداء بين والدواء بين، اكتشفوا أن التيارات الهوائية تأكل جانبه الشمالى أيضا، تحول إلى ما يشبه قطعة الصلصال المتيبسة.. قطعة الصلصال تلفظ

قشورها لتذروها الرياح، يقولون إن الدوامات الهوائية تحمل الرياح من الهضبة، وتلفها حول الحارس فى شكل صنفرة متجددة، رأى الحكماء السبعة أن كل عمليات الترميم السابقة جانبها التوفيق.. بل إن بعضها - خصوصا تلك التى تمت فى الناحية الجنوبية على أثر المؤتمر الثانى - زادت حاله سوءا، وعلى الرغم من المحاولات المضنية التى يبذلها المؤتمرون الحاليون فقد بات الأمر فى حاجة إلى تدخل عالمى.. فالأبحاث المقدمة إلى إدارة المؤتمر تؤكد تدهور حالته، ويقولون إن طريقة العلاج التى ستتضمنها وثيقة الحكماء السبعة ستكون النبراس الذى يبدأ على أساسه العلاج القويم. هنا تحركت الدموع فى أعين عدد من أعضاء الوفد اليابانى.. فهم يعتبرونه حارسا كونيا... وليس محليا.

لو حققت أهدافى لما تركت ثعبانا إلا قتلته.. سحلية إلا سحلتها.. فأرا .. لما تركتهم يحرقون القمامة فى الشوارع، ويشطرون الشعب إلى عمال وفلاحين، وطوائف أخرى... ويعتدون على الكويت تمكينا للطغمة الطاغية ذات القبضة الباغية، وتعزيزا لوجودهم.. لما تركتهم يهتفون : ماما بوش... وبابا... عفوا ... أقصد: بابا.. وماما تاتشر... لو ... لما ... لو ... لما ..لو ... ولقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى، شاو.. مشل... شلول..شلشل... شول... وقال ابن قتيبة: وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج على مذاهب المتقدمين، فيقف على منزل عامر، أو يحكى عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا

على المنزل الدارس، والرسم العافى، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجوارى، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس، والآس، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعراء..

فجأة .. تحرك الحذاء وحده... وضغط على الرأس ضغطة مباغتة... مفاجأة دهشت لها أنا نفسى!... هو الذى تحرك دون إرادة منى، وضغط الضغطة الأولى على غير رغبتى... كنت وقفت وقفة خاطفة لتأمل الرأس، كانت رأسا دقيقة دقيقة.. ضعيفة .. ضعيفة.. أحيانا تتحرك الأعضاء، حركات غريزية بحكم وظائفها وحركات تلقائية بحكم عاداتها المكتسبة، تماما كما تفك أصابع اليدين الحبل المعقد دون خطة مسبقة أو نظام معين، وإنما بحركات عفوية لا يقصدها عقلك بل عقلها، يحركها منطقها لا منطقك، دربتها الخاصة لا دربتك، ربما لو حكمت عقلك ومنطقك ودربتك لما وصلت إلى النتيجة المرجوة... تماما كما ينساب القلم أو اللسان انسيابا مع تصاريف اللغة ونزواتها... مع المفردات التى تمدك بتوليدات من عندها، وليس من عندك، أحيانا أريد أن أقول أو أكتب شيئا ، فأقول أو أكتب غيره، انسياقا وراء حلاوة اللفظ ، أو إغراء النبرة أو سلاسة الجملة، المرتبطة - لا ريب - بتراث طويل ينادى من جوف الماضى: الأحرف والكلمات والعبارات،

فيكتب لها الحضور معها.. بالضبط كما تنادى أمى على الكتاكيت بطقطقة تخرج من فيها عن طريق ضرب لسانها لحلقها ضربات متلاحقة فتلمها جميعا حولها، أفطن إلى ذلك أثناء عملى كثيرا ، حين أصل إلى نتائج غير تلك التى استخلصتها بعد استيعاب كافة الأوراق، ووطدت العزم على الحكم بها، قد يصلح تنادى الحروف أوالألفاظ أو الجمل مع الفن، فهل يصلح أيضا مع العدل؟... العدل بحاجة إلى موضوعية مجردة لا تأتيها الذات من بين يديها ولا ... هاهى الألفاظ تحاول أن تتنادى لتوحدنى مع تراثى.. لكنى أكبح جماحها ، لاشك أنك اكتشفت فى حديثى معك أمثلة كثيرة لهذا الاستدعاء أو التنادى: « سحلية إلا سحلتها... «لماذا العداء وهو ليس الدواء؟..» «هنا استدعاء واضح للحروف المتماثلة، أرى - لدى الموافقة - خصم سبعة أيام من راتبه، رغم أنى كنت عقدت العزم على حفظ الموضوع برمته، ثم لماذا سبعة وليس خمسة أو عشرة؟... قال لى رئيسى - وأنا فى مقتبل الوظيفة - إنه إلهام المحقق، وأقول لمرءوسى - وأنا فى مثل وضع رئيسى - ... وإلهام المحقق مثل الهام الفنان... وقد يقول مرؤوسى - عندما يكون فى مثل وضعى - .. وإلهام الفنان قبس من وحى النبوة.. هل كنت أبصره - أو الوحى - هو الذى جعلنى أحيد عن الحق... عما كنت أبصره حقا؟... أى نبى هذا الذى يسكننى ؟... لابد أنه نبى كاذب!..

ربما أغرى الحذاء دقة الرأس، فأراد أن يفعصها ، هكذا

يستأسد القوى على الضعيف، وقد يفترس الموت الحياة، وهى بعد جنين لم يوهب الوجود إلى عالم الأحياء، وقد تترك البقرة الوحشية صغيرها لترعى، ثم تعود إليه لترضعه ، فتجده قد أصبح أشلاء أو بقايا على يد وحش كاسر، كانت الضغطة الأولى على غير إرادتى، أما ما تبعها من ضغطات، فقد تحكمت فيها فى يقظة وحرص وكما أردت تماما، كنت قد تنبهت إلى إمكانية تسرب السم من أنيابه إلى نعل حذائى، وإمكانية تشرب النعل للسم إلى أن يصل إلى القدم، أخذت أضغط على الرأس ضغطات حريصة متمكنة، ضغطة سريعة، ورفعة، حتى لا أمكن السم من التسرب، أو هكذا من الانغراز فى جلد النعل والوصول إلى جلد القدم... أو هكذا هى لى، عندما اطمأنت إلى سحقه رفعت قدمي، كانت الرأس قد تهشمت تماما، وهدأ الجسد هدوءًا تاما، ليست لى تجربة مع قتل الثعابين ، لى تجربة وحيدة مع قتل الأبراص ، رغم انفصاله عن الجسد ظل الذيل يتقافز لفترة طويلة!... هيئ لى أن الذيل سوف ينمو له جسد.. وأن الجسد سوف تبرز من تحته أقدام، ومن أمامه رأس ذات عينين كبيرتين جاحظتين ، وسوف يهرع من جديد إلى الحائط أو السقف فى حركات سريعة يقظة، ليس لها - فى نظرى - ضابط أو رابط، مضمرا لى شرا، ليس هذا هو سبب تركه فى حاله فيما بعد، السبب أنه - بعد المرة الوحيدة التى اقترفت فيها ثم قتله - صعب على، هالنى أن دمه لا يسيل ، بقعة صغيرة حمراء عند

الرأس... وحسب كأنه جريح لا ميت، كائن لا يموت... رغم الدق عليه، وكل محاولاتك لا تجنى من ورائها سوى تعذيبه، تعذيب روح خلقها الله، أتغتر بضخامتك بالقياس إلى ضآلته ، كما يغتر بضخامته بالقياس إلى ضآلة الناموسة أو الفراشة فيفترسها؟!... هو أفضل منك... فالبعوض أو الفراش غذاؤه ، فهل تتغذى أنت على الأبراص؟... لماذا تقتله إذن؟... وماذا تفعل لو سلط الله عليك بذنبك من لا يخافه ولا يرحمك؟... كائن أقوى وأضخم منك... ليس فى ضخامة الفيل أو الخرتيت.. كائن من تلك الكائنات الرهيبة التى يحكون عنها ولم ترها .. لم ترها بعد ولكنك تتخيلها ، ومن طول تخيلك لها أصبحت كأنك تراها .. تراها .. كائن لا ككل الكائنات... يطاول الجبال ويسد عين الشمس... يعيش فى جوف الأرض... .أو فى عمق البحر... يخرج فى وقت لا تعلمه... قد تقع فى طريقه صدفة... فيلهو ويعبث بك... وقتها لن يدانى فزعك ورعبك - دون أن يفعصك أو يجرحك أو يكسر لك ضلعا - عذابا آخر... وقد يدق عليك بشبشبه أو قبقابه فتموت ولا تموت... كانت عيون البرص الجاحظة الهلعة تدور فى محاجرها متسائلة: ليه؟... ليه؟... ليه؟... هل آذيتك؟.. إنى أهرب منك، وأصل فى هروبى إلى السقف..أو أختفى خلف خصاص النافذة..وأنا نظيف نظيف كما ترى، وإذا مررت على الملح - كما يقولون لك - فالذنب ليس ذنبى، وإنما ذنب من ترك الملح مكشوفا ، ثم من أدراك أن من يأكل من

هذا الملح يصاب بمرض البهاق!.. هم قالوا لك ذلك ، كما قالوا لك أن البثور الجلدية الصلبة التى يسموها «السنطة» تنبت من الرذاذ المتطاير من أنف الحمار أو فمه.. يسمونها أيضا: منفرة حمار .. لكن... هل كل ما يقولونه صحيح؟... كنت أنظر إلى البرص فى خوف... ومن الخوف تولدت قدسية من نوع ما... قالوا لنا إذا رأيته فقل: «صاحب البيت اسمه محمد» فيخرج من البيت على الفور ، وهكذا اقترن فى ضميرى بالرسالة المقدسة والنبوة المطهرة... يكفى أنه يسمع النداء فيلبيه.. مخلوق صغير صغير لكنه قوى الإيمان.. منذ بدأت أفكر لنفسى بدأت مشاكلى... أولى هذه المشاكل وأخطرها الصدام بين ... بين ماذا؟... لا جدوى من اجترار المسيرة...لا جدوى..

توضحت الرأس المسحوق فى ترقب مشوب بالعطف، خيل لى أن الحياة تدب فى الجسد من جديد... أن الرأس المضغوط يتنفس ، ويصبح مثل البندقية المهشمة.. ويتحرك... ارتجف داخلى، فلأدعه فى حاله... فى حاله؟!.. هكذا !!... وهو يتراوح بين الحياة والموت؟!!... من أدرانى أنه ليس كالجمل؟... طباع الحيوان مازالت تسكننا ، لا توجد طباع بشرية.. الإنسان حيوان منتخب... امتزجت فيه طباع حيوانات متعددة مختلفة المشارب والأهواء : القط.. الذئب... الكلب .. الحمل... الجمل... أحيانا تتغلب طباع الذئب فيوجد الإنسان الذئب... تتغلب طباع النمر... الكلب

..العصفور ... الببغاء.. الحمل... لم لا تكون الحيوانات زواحف منتخبة؟... لم لا يكون الجمل ثعبانا متطورا.. ويكون الانتقام المضمر عادة زاحفة أصلا... الجمل لا ينسى الإساءة ولا ينام عن الثأر، حتى القط.. لم لا يكون القط قد استمد طريقته فى صيد الفأر من الثعبان؟... يقولون إن الثعبان ينظر إلى العصفور الواقف على فرع من فروع الشجرة نظرة شاخصة تجذبه إلى فمه... تشله عن الطيران والفرار بجلده... عن الحركة، يسقط كثمرة ناضجة فى الفم المتثائب.

أخذت بلاطة وجدتها على الرصيف، ووضعتها فوق رأسه وقفت بقدم واحدة على البلاطة حتى همدت أنفاسه وسكن سكونا تاما. رفعت البلاطة فإذا برأسه قد اختفت ، وسحق جزء جديد من جسمه، ماذا بعد قتله؟... لمع جلده أمامى فأحسست بنعومته وثرائه، بدأ الجسم يتضخم رويدا رويدا ليتيح للصناع التصرف بحرية عن سعة، كم شنطة؟... وكم حذاء؟... وكم حزام؟... إنه ثروة كبيرة. حثثت شابين كانا ينظران إليه: ارفعاه، ارفعاه... توقف رجل توقفا غير تام، كان أحد الشابين يهم برفعه من ناحية الرصيف المقابل، نظر إلى الرجل فأحس كأنه لا يميل إلى ما يحدث ، كانت عيناه كأنما تقولان له: واحنا مالنا، توقفت مبادرة الشاب، وجهت ندائى إلى كل من استوقفهم المنظر، غير عابئ بالرجل الذى... ارفعوه... ارفعوه... لم يتحركوا . وقفوا مكتوفى

الأيدى يتفرجون، بدا فى نظرة الرجل شىء من التحدى، جاءت سيارة تتهادى، أشار إليها المتناثرين، كانت إشارته للسائق تعني: دس.. دس... لا تعبأ... ولا يهمك... لا يوجد شىء يستدعى الحذر، وطئته السيارة، كان قد تضخم حتى أصبح فى عرض مطبات الطريق الصناعية، كان المطب مازال طازجا، فهبطت به العجلتان فى موضعين ، أيقنت تهرّءه من كثرة الدهس ، لن يصلح لشىء..

توجهت إلى كشك السجائر.

سرت إلى عملى بنفس الإحساس القديم..

الإحساس الذى جثم على صدرى منذ بدأت أستفيق..

ربما منذ بدأت البحث عن..

عن ماذا؟..

لا جدوى .. لا جدوى من اجترار المسيرة.



مقابـلات

كسرت ذراعى إثر حادث تافه، كنت أسير فى الصباح بخطوات نشطة متجها إلى المترو، توقفت حركة المرور فجأة، قفزت بين عربتين لأصل إلى الطوار. كانت إحداهما تجر الأخرى، لم ألحظ الحبل الذى يصل بينهما فانكفأت على وجهى، كانوا يقولون لنا فى الصبا: لتجعل الكتف تمتص الصدمة، نفذت التعليمات تلقائيا، كان الحبل مشدودا على آخره فلم يمهلنى ، وحد ارتفاعه من حرية التصرف، استندت على موقفى ، قال الطبيب - فيما بعد - إن عظام المرفق تفتتت... وأن تلك حالة نادرة، رفعنى المارة، وحاصروا العربتين ،أشرت إلى السائقين أن يواصلا سيرهما، فالذنب ذنبى، لاحظ زملائى فى العمل أن الألم يعتصرنى، نصحونى بالتوجه إلى مستشفى قريب، بعد حصولى على صورة

الأشعة، تبين عدم وجود طبيب للعظام بالمستشفى فى ذلك اليوم، نصحنى أحد الزملاء بالتوجه إلى طبيب مشهور فى ميدان التحرير، فالكسر ليس بسيطا، فى المساء قلت للممرضة إنها مسألة مستعجلة ، فأصرت على أسبقية الحجز، حجزت ليوم الثلاثاء.

كنا يوم الأحد فاتجهت إلى مقهى «سوق الحميدية» التى لم أزرها منذ فترة غير قريبة ، كان الصحفى أحمد جوده - الذى يدرس الآن فى لندن - فى زيارة عاجلة للقاهرة، حمل معه نسخة من عدد «مايو» من مجلة «الناقد» تخاطفتها الأيدى عند حضورى عرفت القصة فالتقطت العدد من على المائدة، كانت صورة محمد عفيفى مطر تتصدر الغلاف. وبالمجلة ملف خاص محوره الأساسى: «الحرية لعفيفى مطر»، تحدثت المجلة عما يلاقيه فى سجنه من تعذيب بشع، بشهادة لجنة حقوق الإنسان، استطاع مندوب اللجنة أن يلتقى به داخل الجدران، ويرى آثار التعذيب، بعد هذه التوطئة توالت كلمات موجزة بأقلام: محمود أمين العالم، أدونيس ، خالدة سعيد ، إلياس حنا، سميح القاسم ، جابر عصفور، أنسى الحاج، سليمان فياض، فاروق عبد القادر، صبرى حافظ، كمال ديب، محمد برادة، محمد سليمان، حلمى سالم، نورى الجراح، جميل حتمل ، أحمد ناصر، قد يختلفون معه فى الرأى ولكنهم يقدرونه شاعرا وإنسانا... وربما دهش بعضهم لارتكاب هذه الجريمة فى بلد تدعى الإيمان بالرأى

الآخر... ثار سليمان فياض ثورة عارمة ولم يتركنى أكمل استهلالى... ربما لأنى تساءلت فى هذا الاستهلال عن كلمة غريبة نسبتها جريدة شاذة إلى عفيفى مطر، وعبثا حاولت إيضاح هدفى... فثورة سليمان ألجمتنى .. ربما لأنى كنت مشدودا لهذه الثورة، مصغيا إليها بكل حواسى، متسائلا فى دهشة: ألم تخمد جذوته بعد؟!.. وربما لإعجابى بتحركه أثناء اعتقال عفيفى، واستقالته من اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا ، عندما جوبه بإجابات مماطلة، ووجه بوعود مراوغة، وقوبل بعبارات مطاطة، وتسويفات مرتعبة، وهكذا يكون الفنان، الفنان الجذوة المتقدة... الفنان الشرارة الملتهبة.. الفنان الثورة.

وفجأة ... وقبل أن تهدأ ثورة سليمان، ظهر عفيفي!!... أى والله العظيم هذا حصل... عفيفى مطر!!... .. محمد عفيفى مطر... كان أنفه وارما... وكان يرتدى قميصا أبيض نظيفاً، وحلة أنيقة، من أين جاء؟!.. ومتى خرج؟!... وتعددت الأسئلة الذاهلة، والإجابات الباسمة، خرج اليوم، توجه إلى منزله لينفض عنه غبار الرحلة ولم يستقر فى بيته، وإنما طار إلى المقهى، كان سليمان يجلس قبالتى، فأشار إلى باسما بما معناه: «أقول له؟» .. أتيت بحركات باسمة ومستعطفة: «عشان خاطرى»، وتعالت الضحكات الصاخبة من حولنا.

- محمود عبد الرازق!!... لقد عدت منذ ثمانى سنوات ولم أرك !!..

- تقابلنا هنا منذ أربع سنوات... وقلت أنت نفس هذه العبارات..

شرد قليلا ثم قال:

- يبدو أن هذا الجسد النحيل قد تحمل المستحيل... إنه جسد معجزة... وأنا معتز ببطولته.

ثم أخذ يسرد علينا أساليب التعذيب التى وصلت إلى حد الصعق بالكهرباء، وإجباره على تعاطى عقاقير الهلوسة... عقاقير الهلوسة!!... وسيلة جديدة لم اسمع عنها.. قال مصطفى أبو النصر:

- حتى يقول ماعنده..

قال عفيفى:

- ولم يكن عندى ما أخفيه.. كل ما كنت أراه وأنا تحت تأثير العقار هو أولادى... كانوا يجلسون أمامى.. وكنت أناديهم واحدا... واحدا..

يبدو أنه خشى على أعصابنا فعلت وجهه ابتسامة... قالوا لى: ألا تعرف أننا كنا وراءك فى كل مكان؟... ألا تعرف أننا كنا معك فى مخدعك؟... إن لم تكن تعرف فأنت جاهل أو مجنون ، قلت لهم: أنا أعرف أنكم كنتم ورائى وقدامى... لكنى كنت على يقين من أننى لا أفعل شيئا يستأهل التأثيم.. المسألة كلها ترجع إلى خطأ فى حساباتكم، قالوا: وشرب البيرة؟... كانوا قد كرروا حكاية البيرة عنده كثيرا حتى ضقت بها، قلت: إن شرب البيرة خير

من شرب دماء الشعب... وعينك ما تشوف إلا النور.. ضرب من جميع الاتجاهات مقرونا بأقذع السباب.. دانا أمى اتشمت شتيمة!!... لو قدر لها أن تسمعها للعنت اليوم الذى ولدتنى فيه!!... حدثته عن الكلمة الغريبة التى نسبتها إليه الجريدة الشاذة، قال إنه عندما قرأها عرف أنه سوف يعتقل، لأنه يعرف الكثير عن كاتبها، طلب من زوجته أن تحضر له الشنطة، ودهش عندما تأخر القبض عليه لمدة ثلاثة أيام... وقبل أن يكمل حديثه أطلعه فاروق عبد القادر على مجلة «الناقد» تأمل صورته التى تزين الغلاف ، وطلب أن يحتفظ بالنسخة، مانع فاروق فى مبدا الأمر، وكان مما قاله عفيفى فى طفولة عذبة ورجولة مسكينة «عشان أوريها للعيال، ويعرفوا أن أباهم بطل، ابتسم فلم نبتسم، كنا أمام بطل حقيقى يحاول أن يخفى فعاليات دوره.

وضعت ذراعى فى الجبس فى وضع يعوقنى عن الكتابة، خفت الآلام حتى نسيتها ، لم أتذكرها إلا عندما قامت سيدة لأجلس مكانها، اعتذرت فأشار إلى شاب من بعيد، هكذا مصر، هل أحدثهم عن عفيفى مطر... عن أنفه المهشم الذى شاهدته بعينى رأسى.. عن جسده الممزق المختفى وراء حلة أنيقة، وكأنه يستعد لمعركة جديدة. إننى لم أصب فى معركة... أصبت فى حادث تافه، ليلة الحادث حلمت أن والدة زوجتى المتوفاة نزلت بها السلم وهما ترتديان ثيابا بيضاء... ونزلت أنا ووالدها خلفهما فى ثياب عادية، نرجس تؤمن بالأحلام،

وبالمأثور الشعبى فى تفسيرها، قالت: إننى سوف أموت، عبثا حاولت أن أذكرها بدرجتها العلمية وثقافتها وعقلها الراجح ، عندما تخلخل الازدحام و خلت مقاعد المترو قرب حلوان، وجلسنا متجاورين، قلت لها: لقد تحقق الحلم... أنت ساعدى الأيمن... وها أنت ساعدى فى حلة بيضاء.. أو لنقل إنه فى قبر صغير حديث البناء على مقاسه.. أشرق وجهها، وأخذت تلقى على سمعى بنكات صاخبة تتناول ذراعى ولطف الله فى قضائه، وافتداني بذبح غير سمين.

عندما عدنا إلى البيت تذكرت الكتابة، لتكن فترة استجمام كما قال الطبيب . قال الطبيب عليك أن تقبل الوضع الجديد... عليك أن تصادق يدك بحالتها الراهنة... وسوف تعتاد على ذلك... وربما افتقدت الجبس بعد فكه، استجمام!!... ولكنى أستجم بالكتابة... أستجم بها وأتطهر... فلتكن القراءة بديلا قسريا لها، فى الصغر كنت لا أكتب حتى لا تعطلنى الكتابة عن القراءة، كنت أريد أن ألتهم كل ما هو مسطور .. كنت أقرأ حتى إعلانات الصحف ، وألتقط ما لها وما عليها، كأنها مقال رأى، الآن لا أقرأ إلا أثناء الكتابة.. وربما من أجل متطلباتها... ربما لأنى أريد أن أفرغ مخزون الذاكرة على الورق... أفرغ فأتخفف ، وأشعر براحة عميقة، تحولت نشوة الدهشة أثناء القراءة، إلى دهشة وانبهار وانفجار بالكتابة، لكن ماذا أقرأ ؟.. وهل هناك ما يقرأ الآن غير شعر عفيفى مطر؟!.. ولكن لا أفهمه !!... ومن أدرانى أنه يستعصى على

فهمى الآن؟... مضت فترة طويلة على ملامح «*الوجه*» *الأنبا* دوقليس» الذى كدت أعيده إليه. من حسن الحظ ـ حدث ذلك فيما بعد ـ أن صدر عدد «يونيو» من مجلة «ابداع» وبه مقال خطير بعنوان: «معلقات محمد عفيفى مطر».

كان محمود أمين العالم قد جعل محمد عفيفى مطر تيارا قائما بذاته..

حدث ذلك فى دراسة سابقة له عن الشعر الحديث، سماه «تيار التعقيد الذى يصل أحيانا إلى حد الإبهام وانعدام التوصيل... وهو يجمع بين ما يسميه نقادنا القدامى المعاظلة واستخدام حوشى الكلام، وبين غموض المعنى وإبهامه» ثم قال: «إن دراستنا التحليلية المستأنية تستطيع أن تصل إلى تفسير هذه الدلالات ، على أن الأمر سيكون عملية عقلانية استخلاصية، وليس تذوقا واستمتاعا شعريا». ولكنه يقول فى هذا المقال الأخير إنه قد أتيح له أخيرا محاولة تفسير هذا الحكم بالقيام بتحليل ديوانه «أنت واحدها وهى أعضاؤك انتثرت»... وأعترف بعد أن قمت بذلك بأنه لم يكن مجرد عملية عقلانية استخلاصية، وإن كانت كذلك فى كثير من الأحيان، وإنما تفجرت عنها فى نفسى لحظات شعرية من التذوق والاستمتاع الحقيقى، ويبدأ مقاله هذا بقوله: «محمد عفيفى مطر، واحد من أبرز الشعراء العرب المعاصرين عامة. بل أزعم أنه مدرسة قائمة بذاتها فى ساحة الشعر العربى المعاصر، بل أضيف إنه صاحب مشروع شعرى واع بذاته،

ونسيج وحده».

وقد اعتبرت هذا المقال بمثابة وثيقة احتجاج من مناضل قديم وناقد عظيم، بالإضافة إلى قيمته الوثائقية، فقد أفادنى كثيرا فى الدخول باطمئنان إلى عالم مطر، بعد أن حدد محاور عالمه تحديدا دقيقا ملهما، وأحسب أنه سوف يكون بمثابة السراج المنير للكثيرين غيرى، وأرجو أن يسيروا على هداه عن وعى لا سوء فهم، حتي ينسبوها إلى مصدرها، وأذكر أن أحد النقاد نقل فى كتاب له عن نجيب محفوظ معظم آراء العالم، وعندما واجهناه بذلك أنكر وادعى - فى صلافة - أنه من قبيل الرؤيا النقدية الواحدة. لكننا قدمنا له دليلا دامغا، فقد سمى العالم - من قبيل السهو - أحد شخوص الثلاثية باسم آخر، فتبعه الناقل مثبتا التسمية الخاطئة . وأرسى العالم مصطلح «المعمار الفنى» فى لغتنا ، فتناقلته الألسنة حتى ابتذلته، وحمدت الله على أننى لم أنسق وراء هذه الموجة، ربما لعدم ميلى إلى التعبير بمصطلحات فن عن فن آخر إلا بحذر ولحاجة ملحة، وقد لاحظت أنى أتحاشى الآن الانسياق وراء المصطلحات والعبارات التى أصبحت على كل لسان ، رغم خطأ بعضها مثل: «الإشكالية» و «المصداقية» و«الآليات» وعدم إدراك كنه بعضها الآخر مثل : «الحداثة» و«الحداثية» و«التحديث».

واختتم العالم مقاله بقوله: «إن محمد عفيفى مطر شاعر من أكبر وأقدر شعراء العربية اليوم، وصاحب طاقة شعرية

فائقة ومدرسة شعرية ذات خصوصية تمتح من ثقافة تراثية وإنسانية عميقة، وتتفتح بالإبداع على آفاق نادرة - ولكن ما أجدره وهو الفلاح ذو الأصول البسيطة، والمثقف الواعى المسئول، أن يزداد اقترابا من واقعه الحى، واقعنا الاجتماعى والإنسانى، قراءة له، وتعبيرا عنه، لن يقلل هذا من القيمة الإبداعية لشعره، بل سيتحقق به انتصار كبير للشعر والحياة معا».وتلك أمنية عسيرة التحقيق، لا تعبر - فى عجزها - عن رؤية نقدية، وإنما على احتضان لطاقة شعرية، يتمنى لها الأب أن تسعى إلى الجماهير عن طريق الشعر، كما سعى صاحبها إليها - من حيث لا يحتسب - عن طريق العمل السياسى، إن أحدا لن يستطيع أن يقفز فوق ظله، وسيظل عفيفى ، عفيفى مطر... كما ظل أبو تمام، أبا تمام.

نمت فى هذا اليوم نوماً عميقاً بعد أن وضعت ذراعى إلى جانبى واطمأننت عليه، كنت أتقلب أحياناً فأنقله إلى الناحية الأخرى دون أن يعكر شىء من صفو الليلة، إلى أن حدث ما لم أتوقعه، فأثناء النوم رفعت ذراعى اليسرى لأهرش بأناملها ذراعى اليمنى، والهرش - كما هو معلوم - متعة لا تدانيها متعة. فوجئت بأن ذراعى محاطة بسور لا يمكن اختراقه، قمت من نومى مفزوعا ، وغلى الدم فى عروقى ، ولما بلغ ضيقى مداه أيقظت زوجتى، ماذا أريد منها؟!... ربما الونس أو لتكون شاهدا على انهيارى، لكن الأزمة سرعان ما تصاعدت ، وشعرت بارتفاع ضغط دمى، فتناولت حبة

«كابوزايد» ومع ذلك فقد كاد الدم أن يتفجر من أذنى، هنا ...
قمت بمحاولة بائسة لتحطيم السور، فبدأت أخبط ذراعى فى الجدران عند المكان الذى أرغب فى هرشه، حتى تيبس جزء كبير من الجبس، وحمدت الله - فيما بعد - على أن الأجزاء التى تيبست كانت بعيدة عن المرفق والمعصم، واستيقظ ابنى مدحت على صوت الخبط فتماسكت، وأخذت أذرع الصالة جيئة وذهابا وأنا أتمتم:يا عفيفى.. يا عفيفى.. كنت أستحضر عذاباته متعمدا لتلهمنى القوة، وأنظر إلى ابنى مبتسما حتى لا يشعر بما أعانيه وأتذكر أولاد عفيفى.. وأتذكر عفيفى وهو ينادى أولاده تحت تأثير عقار الهلوسة، إلى أن هدنى التعب وحبات «الفاليوم» التى رجتنى زوجتى لابتلاعها ، عند الظهر وجدت ابنى مدحت يغيظ أخاه مهاب بقوله إنه سهر مع ماما وبابا حتى الصباح... وقضى ليلة ممتعة.

حاولت الكتابة فلم أفلح... وبمعاونة زوجتى وبالمقص والسكين والمفك قمنا بقطع الشاش المجبس الذى يتخلل السبابة والإبهام ليصل ظهر الكف بباطنها، لم أتمكن - مع ذلك - من الكتابة ، لأن المعصم كان مقيدا بإحكام بحزامه الجبسى..

قال الطبيب - فيما بعد - مين الفار اللى قرقض الجبس ده؟... وأوضح لنا أهمية هذا الرباط فى منع تحريك المعصم، رأيت ألا مفر من اختيار بعض الكتب للقراءة، فكرت فى

اختيار كتب تتحدث عن عذاب البشر، ربما أكون مخطئا فى الاختيار ، لكننى لم أستطع قراءة غيرها، قد يرجع ذلك إلى الميل الشخصى أو الظروف المحيطة، قفز إلى ذهنى كتاب عن: «محاكم التفتيش» غير أنى لم أستطع الاقتراب منه، لا أقدر على قراءة مثل هذه الكتب إلا فى مدة طويلة على فترات ، وبكثير من المعاناة.أذكر أنى قرأت: «شغلانة» ليوسف إدريس (١٩٥٤) فى أكثر من جلسة رغم قصرها ، وكذلك: «لغة الآى آى» (١٩٦٥)، فكرت فى قراءة بعض الروايات التى قرأتها منذ فترة طويلة وأشعر بالحاجة إلى إعادة قراءتها مثل سبارتاكوس، كوفاديس... جسر على نهر درينا... جذور... نعم جذور... فلتكن الأولى للانبهار .. والثانية للاكتشاف ، أذكر أنها أوحت إلى ببعض القصص لكنى لم أكتبها، ربما استطعت بعد إعادة قراءتها أن أضع إصبعى على المواطن التى حركت مشاعرى.

تستمد هذه الرواية عظمتها من كونها رواية وثائقية تسجيلية بذل أليكس هيلى جهدا كبيرا لجمع وثائقها، لكن الجانب التخييلى فيها لا يقل عظمة عن الجانب الوثائقى، يذكر الكاتب أنه عندما شرع فى محاولة الكتابة عن سفينة العبيد التى عبرت المحيط بالعبيد الجامبيين، اضطر للسفر إلى أفريقيا، وحصل على تصريح بالسفر على أول سفينة شحن تبحر من ميناء أفريقى أسود إلى أمريكا رأسا، وكان يبادر فى كل ليلة عقب تناول طعام العشاء إلى النزول على السلالم

المعدنية المؤدية إلى عنبر السفينة العميق المظلم البارد المخصص لشحن البضائع، ثم يخلع ملابسه الخارجية ، ويستلقى على ظهره بملابسه الداخلية فوق لوح خشبى عريض جاف لا توجد عليه أية أغطية، وأرغم نفسه على العيش فى تلك التجربة عشر ليال متتالية، محاولا تخيل ما كان يراه «كونتا» ويسمعه ويحسه ويشمه ويتذوقه، بل محاولا معرفة الأمور التى كان يفكر فيها بعد أن تحددت معالم شخصيته فى ذهنه، ومع ذلك كان عبوره المحيط فى تلك السفينة محاطا - كما قال - بالرفاهية السخيفة إذا ما قورن بالعذاب الجنونى الذى عانى منه: « كونتاكينتي» ورفاقه .. والملايين الذين كانوا يرقدون مكبلين بالحديد فى رعب وسط غائطهم وبولهم المتراكم طوال فترة تتراوح من ٨٠ إلى ٩٠ يوما ، إضافة إلى ذلك المجهول الذى كان ينتظرهم عقب نهاية الرحلة.. مما كان يضيف إليهم أحاسيس جديدة من الرعب الجسدى والنفسى والعصبى، وقام بكتابة الجزء الخاص عن عبور المحيط من منظور شحن الآدميين بالأسلوب الحيوانى..

وكان هذا الجزء من الرواية من أكبر معجزاتها، ولا أتصور أن تجربته هذه قد أفادته كثيرا فى كتابته، أما الذى أفاده إفادة كبيرة - فى نظرنا - فهو خبرته السابقة فى العمل بالسفن، وفرق كبير بين التجربة المفتعلة ، والخبرة الفعلية، فقد عمل طاهيا بسلاح حرس السواحل الأمريكى عند نشوب الحرب العالمية الثانية، كان عمره سبع عشرة سنة، وقد

اعترف بأنه عثر على الطريق الطويل الذى قاده إلى كتابة: «جذور» أثناء وجوده فى باخرة نقل الذخيرة التى كانت تتردد بين أمريكا وجنوب غرب الباسفيك، كانت إقامتهم فى عرض البحر تمتد فى بعض الأحيان إلى ثلاثة أشهر، ولم تكن الحرب الحقيقية التى يقوم بها طاقم الباخرة موجهة ضد قاذفات القنابل والغواصات بقدر ما كانت موجهة ضد الشعور بالملل الرهيب. فراح يكتب الخطابات لكل شخص يخطر على باله، وقرأ جميع الكتب الموجودة فى مكتبة الباخرة الصغيرة ثلاث مرات. كان يعشق القراءة منذ صغره وخاصة قصص المغامرات، وعندما لم يجد كتبا أخرى حاول كتابة بعض القصص، وعندئذ أحس بشىء من الحيرة والتحدى والانتعاش. ومازالت الكتابة تثير فى نفسى تلك المشاعر حتى الآن» وداوم على الكتابة فى كل ليلة، وأرسل ما كتبه إلى بعض المجلات، وتلقى مئات الرسائل التى تعتذر عن النشر، وظل على هذه الحال على مدى ثمان سنوات، إلى أن تم شراء أول قصة له، وبعد انتهاء الحرب عينته سلطات خفر السواحل فى وظيفة صحفى، وقد ابتكرت هذه الوظيفة من أجله، وبعد عشرين عاما ترك الخدمة العسكرية وتفرغ للكتابة (١٩٥٩) وكانت معظم مقالاته تحتوى على مادة درامية تاريخية. فقد كان يعشق البحار وكل ما يتعلق بها، ويذكر هيلى أن كتاباته الأولى كانت تدور حول المغامرات الدرامية البحرية «المستقاة من السجلات البحرية القديمة الموجودة فى أرشيف حرس

السواحل الأمريكى فكان ذلك بمثابة إعداد عظيم لمواجهة التحديات البحرية الدقيقة التى تضمنها كتاب: «جذور».

وقد يفيدنا أن ننقل لقطة موجزة من عذابات «كونتا» على ظهر السفينة، فعندما أفاق من إغمائه وجد نفسه عاريا، ومكبلا بالسلاسل ، ومستلقيا على ظهره بين رجلين آخرين ، فى ظلام حالك تسوده حرارة مليئة بالبخار، ورائحة كريهة مثيرة للإشمئزاز، وكابوس من الضجيج الجنونى الزاخر بصراخ مدو، وبكاء مرير وتوسلات إلى الله، وأصوات تقيؤ، واستطاع أن يحس ويشم قيئه على صدره وبطنه، وكان جسده كله بمثابة كتلة من الآلام التشنجية الناجمة عن الضرب الذى تلقاه على مدار أربعة أيام منذ اصطياده، إلا أن المكان الذى وضع عليه الحديد الساخن بين كتفيه كانت تنبعث منه أسوأ الآلام وتلامس فى رفق جسم فأر بفروته الكثيفة مع خده بينما كان أنفه ذو الشوارب يتشمم فمه، فارتعد مشمئزا وكز على أسنانه وأطبق فكيه فى يأس مرير، فانطلق الفأر هاربا، وفى غضب أخذ كونتا يجذب ويركل الأغلال التى تقيد معصميه ورسغى قدميه، فصدرت على الفور صيحات غضب وجذب عكسى من جانب رجل كان مقيدا معه فى نفس الأغلال، فوثب كونتا لأعلى - وقد أحس علاوة على الغضب المعتمل فى صدره بالصدمة النفسية والآلام - فاصطدمت رأسه بشدة فى جسم خشبى على نفس المكان الذى وقعت عليه ضربات الرجال البيض فى الغابات ،

وراح هو والرجل غير المرئى فى الظلام المجاور له يدقان بعضهما البعض بقيودهما الحديدية، وهما يشهقان .. ويزمجران ويلهثان إلى أن تهاويا فى إعياء.. وأحس كونتا بالرغبة فى التقيؤ مرة أخرى، وحاول أن يكبته لكنه لم يستطع، فراحت بطنه الفارغة تعتصر سائلا مرا رفيعا أخذ يسيل من جانب فمه بينما كان مستلقيا متمنيا الموت... وبعد أن تذكر لوح الخشب الذى ارتطمت به رأسه، أخذ يجذب نفسه لأعلى مرة أخرى ببطء يسمح له بارتطام رأسه بخفة، فاكتشف أنه لا توجد مساحة حتى لمجرد الجلوس، كما اكتشف وجود حائط خشبى وراء رأسه، فاعتقد أنه وقع فى فخ مثل نمر مأسور فى مصيدة، وراح يفكر فى الصياح والأنين، والبكاء الذى يسمعه فى جميع الأماكن المحيطة به، لا بد أن هناك رجالا آخرين كثيرين هنا فى هذا المكان المغلف بالسواد ، بعضهم قريب منه للغاية ، وبعضهم بعيد عنه للغاية، وبعضهم بجانبه، والبعض الآخر أمامه، إلا أنهم جميعا موجودون معه فى غرفة واحدة، إذا كانت هذه عبارة عن غرفة، ثم أخذ يرهف السمع فاستطاع أن يسمع مزيدا من الصيحات، ولكنها كانت صيحات مكتومة، ومنبعثة من أسفل، أى من تحت الأخشاب المتراصة التى ينام عليها... وبينما كان يرقد مصغيا بدأ يدرك فى بطء أنه كان يحاول صرف النظر عن تحقيق مطالب أمعائه التى ظل يكبتها لعدة أيام، ولم يعد باستطاعته كبتها فى داخله لفترة أطول من

ذلك، وأخيرا خرج الغائط منه متكورا بين ردفيه، فاشمأز من نفسه بعد أن شم الروائح الكريهة التى أضافها إلى النتانة الموجودة بالفعل، وراح فى نوبة من التشنج، ثم تقلصت معدته مرة أخرى فأخرجت فى هذه المرة كمية قليلة من اللعاب ، لكنه ظل مغلقا فمه..»

هل تغير الوضع الآن؟... أم مازلنا تحت سيطرة الرجل الأبيض وبطشه؟.. مع تطور البحث التاريخى والمقارن، واكتشاف مدى عمق التفاعل والتأثر والتأثير المتبادلين بين الثقافات المختلفة، خفت حدة التفرقة بين الغرب والشرق، بانهيار مبدإ الترتيب التصاعدى للثقافات الإنسانية التى كانت الثقافة الغربية تتربع على قمته، ومن الناحية العرقية خفت حدة التفرقة بين الأبيض والملون بعد تطور علوم الإنسان، واكتشاف الخصائص الإنسانية المشتركة بين الحضارات ، وإثبات أن حضارة الرجل الأبيض إن هى إلا قبس من مشاعل الحضارات الملونة وضع فى مشكاة من بيئته. خفت حدة التفرقة، لكنها لم تختف، وإنما تبلورت فى تفرقة جديدة ركائزها التفرقتان السابقتان وأساسها الفقر، فالعالم الآن ينقسم إلى شمالى وجنوبى من أجل تفرقة أعم وأشمل.. ومازال العالم الشمالى يستعمل الخونة والمأجورين منا، ليكونوا سيفا مسلطا علينا، ويقوم هؤلاء العملاء والخونة بالثورات المضادة ، ويتخذون أداة لإشعال نار الحروب حتى يتمكن الرجل الشمالى (الغربى الأبيض) من السيطرة على

مـقدرات الجنوبى (الشـرقى الملون) لنظل عـبيدا فى حـقوله الشـاسـعة التى هـى حـقولنا ، سـواء زرعت قطنا أم تفـجـرت نفطا، ولعنة الله على النفط الذى تفجر من أرضـه قبل أوانه، فى ظل الأنظمة العسكرية والعشائرية.

الكتـاب الثـانى الذى قـرأته كـان عن حـيـاة : «يوحنا المعمـدان» كتبه واعظ أمريكى من وجهـة نظر إنجيليـة، رغم ضـيقى بصـفـحات الوعظ والإرشـاد الطويلة، التى لا تخـتلف نغـمـتـهـا الرتيبـة من واعظ إلى آخـر.. ومن دين إلى آخـر، حرصت على متـابعتـه للوقوف على دقـائق حيـاة يوحنا كـما وردت بالكتـاب المقـدس، وعندمـا انتـهيت من قراءة الكتاب... وحـتى أثناء قـراءة الجـزء الأخـيـر، كنت أشـعـر بأن يوحنا المعمدان لم يقتل بعد، وأن أسطورة قتله كانت خديعة رومـانية نسـجـهـا: «هيـرودس» ليضلل شـعبـه، وأن المعـمـدان مـازال سـجينا فى قلعة «مـاكيرا» التى كانوا يطلقـون عليـها «البرج الأسـود» وأنـهم مـازالوا مـاضـين فى إذلاله وإهانتـه ، يقـول الواعظ الأمـريكى: إنهـا «خطيـة شنيعـة أن يحبس واعظ البر والحق والطهـر فى سرداب مظلم» وياله من فـارق شـاسـع بين حـفـلات المجـون والملذات التى يغص بـهـا قـصـر الملك، وبين التـعـذيب البطىء الذى قضى على روح المـعـمـدان النبـيلة أن تتحمله بضعة شهور مضنيـة. يوحنا هو السابق... هـو ممهد الطريق للمسيح... وما دام لم يقتل بعد، فإن المسيح لم يظهر بعد، ومادام المسيح لم يأت بعد فمازلنا نجهل مبادئ المحبة

والرحمة بين البشر، كل شىء مازال مرهونا بدخول السياف على يوحنا فى سجن «ماكيرا» وضرب عنقه.. كل شئ.. وعلينا أن نترقب فى شوق حضور السياف برأسه في طبق من ذهب.. وتقديمه للصبية الفاتنة «سالومى» لتقدمه بدورها لأمها «هيروديا»... المرأة الجميلة كالحية... المميتة كالحية..

كان مقررا أن يظل ذراعى رهين محبسه طيلة شهر ونصف... عظامى هشة تحتاج إلى أضعاف المدة التى يحتاجها التئام عظام شاب صغير... لكن طاقتى على الاحتمال نفدت، رغم توسلى - فى اليوم الثالث - بوسيلة أراحتنى بعض الشىء. إذ استعملت إبرة تريكو طويلة فى هرش ذراعى، وكانت الإبرة تصل إلى مسافات مرضية ليلا وليلى نهار، حتى استيقظت فى منتصف اليوم الجديد، فأشعر بدنو أجله، وكنت قد ذهبت إلى الإسكندرية كى لا أضيق بحر القاهرة. ركبت قطار الخامسة مساء ونزلت منه إلى الطبيب، وكلى إصرار على فك الجبس مهما كانت العواقب، حمدت الله أن الدكتور لم يكن موجودا، وأننى استطعت إقناع ابنه بوجهة نظرى، وهكذا أمر الدكتور يونس بفك الجبس على أن أسارع بعمل أشعة وعرضها عليه فى اليوم التالى، شعرت براحة ممتعة رغم عدم استطاعتى تحريك ذراعى، بل شعرت بأنى قد تغيرت كلياً .. أنى شخص آخر.. كنت أميل إلى الهدوء والمهادنة وإيثار السلامة، وعندما استقر بى المقام فى المترو ، أخذت أردد مع أمل دنقل:

أبانا الذى فى المباحث
نحن رعاياك.
باق لك الجبروت.
وباق لك الملكوت.
وباق لمن تحرس الرهبوت.

سائق الأتوبيس

فوجئت بسيارة بيجو تعترض طريقى، كانت خارجة من مسافة المعبد. نزل منها ستة أشخاص مدججين بالسلاح. كانوا يرتدون زى الأمن المركزى. عليه جاكت جينز، فوق جباههم أشرطة حمراء مكتوب عليها: سنقاتل حتى الموت، وضع أحدهم فوهة مدفعه على رأسي، أرغمنى على فتح الباب، ذبحوا المرشد السياحى.. من رقبته.. ثم .. قطعوا فروة رأسه..

كان صوت حجاج إبراهيم النحاس سائق الأتوبيس السياحى مختنقا ، تركناه ليستريح برهة... كنا نريد أن نعرف كل شيء.. أن نكون شهودا مثله.. أن ننقل شهادته إلى الرأى العام... سأله مصطفى القاضى من باب تغيير الموضوع، فغاص داخل الموضوع... لم نستطع أن نفعل أكثر من ذلك. ـ هل شاهدت حديث المدينة؟..

كان من بين محدثى مفيد فوزى أرملة مرشد سياحى وصديقه.قالت أرملة الشهيد إن عشقه الأول كان مصر: تزوجا منذ سبعة عشر عاما، الدفء الذى كان يبثه فى أرجاء البيت، جعلها لا تريد أن تفارقه. أحيانا كانت تصحبه فى رحلاته وكانت تبكى عندما تسمعه يتحدث عن عظمة مصر، كان يتحدث بشعوره وإحساسه.. كنت أبكى، وكان السياح يفهمون مغزى دموعى، ويقدرون تأثرى، اشتركنا فى حب مصر، واستشهد وهو يؤدى دوره من أجل مصر، لم يكن يطرق بابها إلا هو... هو الزوج والأب والولد... واغتال الجبناء الزوج والأب والولد..

وراء كل شخص اغتاله الجبناء أكثر من قصة ، لا تقل أسى عن قصة الزوجة المكلومة، يقول الصديق إنه أصيب بانهيار عصبى.. معظمهم فقد الوعى: سيد أحمد أبو زيد الذى صرخ فى وجه وزير الداخلية.. إبراهيم حجاج النحاس سائق الأتوبيس.. عاده الطبيب على ظهر السفينة أكثر من مرة، كان من المفترض أن أقتل أنا... أن يغتالونى أنا... كنت أمامهم فى بطن الجبل، أشار إليهم أحد السياح وهم متربصون فوق الجبل، لم نتحقق من هويتهم... لم يدر بخلدنا أن يصل الغدر والخيانة إلى هذه الدرجة ، كان معى ستة سياح... تركونا.. كان برفقة صديق ٢٨ سائحا.. كانوا ينشدون الدم الغزير.. الخطب الفادح... المصيبة الأكبر.. الجريمة الأبشع..

انفعل المرشد الإنجليزى سامى بطرس، قال لوائل الإبراشى:كل يوم نشرح للسياح تاريخ حضارتنا.. جاءوا من آخر الدنيا لرؤيتها.. كيف يفكر المجرمون؟... كيف يرتكبون مجازرهم فى هذا المكان الحضارى الرائع؟.. كيف تختلط دماء الضحايا المبهورين بنا بالنقوش والرسومات البديعة؟!...

كتب وائل الإبراشى : فى العيون ذهول... ودهشة... وغضب.. وخوف من المجهول: حالة من الترقب والقلق والتوتر... الناس تغرى بعضها... الحزن يخيم على الجميع...

الأقصر ترتدى ثياب الحداد، الأقصر المشهورة بالمرح والحياة والحب وحضارة العظماء تحولت إلى مدينة للأشباح... ومدينة للموتى...

طلبوا منى أن أتوجه إلى وادى الملوك، معنى ذلك قتل ما يقرب من ٤٠٠ سائح، رفضت فانهالوا على ضربا بأيديهم وأسلحتهم، توجهت بهم إلى داخل قرية القرنة، سرت حوالى أربعة كيلومترات علنى أعثر على من أستغيث به، جهاز اللاسلكى الذى سرقوه من الخفير فراج بعد قتله كشفنى ، سمعوا من خلاله رجل شرطة يصرخ:

الأتوبيس المخطوف يسير فى اتجاه مستشفى القرنة .

انهالوا على ضربا..

تريد أن تضللنا يا ابن الـ..

أرغمونى على العودة إلى طريق وادى الملوك سمعت أميرهم يقول لهم همسا:

اقتلوه بعدما يخرجنا من البلد.

لا يفعلون شيئا إلا بأمره، عمره حوالى ٢٤ سنة، يكبرهم ربما بعام واحد، كان يبدو عليهم الإعياء، ربما لم يذوقوا النوم منذ يومين أو أكثر، لا يعرفون الداخل أو المخارج، أعصابهم تالفة ووجوههم شاحبة.. أجسادهم نحيلة ولونهم أسمر... قدت الأتوبيس فى الطريق الخلفى المواجه لطريق المستشفى ، شاهدوا ضابط شرطة يقف أمام دراجته البخارية..

خش عليه..

رفضت..

عادوا إلى ضربى..

دون أن يشعروا أرسلت إشارات ضوئية بمصابيح السيارة، تنبه الضابط ومد يده ناحية مسدسه، أسرع خمسة منهم بالقفز وقتلوه، قلت للإرهابى الذى كان يحرسنى:

ـ زملاؤك ينادون عليك

تردد لحظة ثم هبط، أسرعت بالفرار ، توجهت إلى وادى الملوك لتحذير السياح، فى الوادى فقدت الوعى.

فى المستشفى كان أطفاله يلتفون حوله: محمد وأمل والرضيع كريم، كلما تحدث عن قتل السياح، كان يحتضنهم بحركة تلقائية ، يقبل الرضيع، ويتعلق محمد برقبته ، عمره حوالى أربع سنوات، عندما تركناه كانت أمل تجلس فى حجره، وأمهم الشابة تقف واجمة، تتطلع إلى وجهه، وكأنه يأتى إليها من واد سحيق.

إخـوتى يسكنون خلف المعبـد، كنت فى طريقى إليـهم، اعتقدت أن ثمة مشاجرة فى المعبد، دخلت، شاهدت ثلاثة أشخاص معهم خناجر وخزانات أسلحة آلية، تواريت خلف أحد الأعمدة ، نصف ساعة وهم يذبحون السياح بالخناجر.

تساقطت الدموع من عينيه ، عادت إليه الحالة العصبية التى انتابته عندما دخل عليه وزير الداخلية ، صرخ:

أنت جاى بعدما خرجت!!

هانعيش إزاى؟!..

هناكل إزاى؟!..

وضع أحد مرافقى الوزير يده على فم سيد أحمد أبو زيد.. تعرض الوزير لذات الموقف من قبل فى مستشفى القرنة بالبر الغربى. هتفت الأهالى عند وصوله:

بعد قليل وصلت رسالة الرئيس إلى الألفى ، كان الرئيس يستمع إلى أصحاب البازارات السياحية ... حدثوه عن معاملة رجال الشرطة الصارمة، عن الإتاوات .. عن استغلال النفوذ ، قدم له سائح إنجليزى شريط فيديو يسجل بطولات الأهالى وتقاعس بعض رجال الشرطة ، كان قراره سريعا حاسما:

عد إلى بيتك..

استطاع أبو زيد أن يسيطر على أعصابه ، قال من خلال سحابات الدموع ... ذبحوا طفلة صغيرة أمام عينى هاتين... كنت مرعوبا.. نعم..خفت أن أتحرك... أحاول الآن إقناع نفسى بأنى لو تحركت لما استطعت أن أفعل شيئا، لم يطلقوا رصاصة واحدة، بعد أن انتهوا من الذبح، بدأوا التشفى... فـيـمن؟... ولماذا؟.. . لا أدرى !.. هكذا بدت الصـورة ، أطلقوا النار على السائحين المذبوحين... صرخ فيهم الخفير أمين المعداوى..

يا كفرة..

إذا كنتم عاوزين تقتلوا... اقتلوا من غير ذبح ..وتقطيع.. التمثيل بالجثث حرام..

صرخ سفاح:

تكفرنا!!.. طب خد..

وأطلق رصاصة على كتفه وهو ليزال يصرخ:

أنت رجل كبير..

هنسيبك عشان تقرا الإسلام والقرآن، وتعرف أن ذبح الكفار على أرض المسلمين حلال.. جهاد

شقوا بطن سائح، ووضعوا بداخلها ورقة ، عرفت هنا أنها كانت منشورا بعنوان: ابقوا فى بلادكم... ولا تأتوا إلى أرض الموت. احتضنت الأم طفلتها.. ذبحوهما معا... يقولون إنهما وصلتا إلى المستشفى ملتصقتين .. توفيتا بمجرد وصولهما..

كنت مرشدة لثلاث بريطانيات - هكذا حدثتنا المرشدة الإنجليزية نهلة القاضى - أم عمرها ٣٠ سنة .. جدة عمرها ٥٠ سنة..حفيدة عمرها سنتان، ذبحت الطفلة وأمها وهما متعانقتان .. سقطت جثة الجدة فوقهما، استقرت رصاصة فى نهاية فخذى الأيسر، وشظايا خلف الأذن، نادى أحد الجناة على زميل له:

- خلصت عندك

- أيوه

- ياللا بينا..

لم يجر .. كان يتبختر مطمئنا.. يشعر أن لن يعترضه أحد، منذ أول لحظة أدركت أنه إرهاب، كنت أقول للناس لا تصدروا صوتا.. حتى لا يعرفوا أننا على قيد الحياة... بعد دقائق لقيت نفسى أكلم نفسى، كل الناس ماتت.. خاصة من كانوا وراء الأعمدة ، لأنه كان يضرب على اللوحات والتماثيل

، وصلت حتشبسوت إلى بلاد بونت... جلبت أشجارا نادرة غرستها فى باحة معبدها.. وقصرها ، جلبت البخور والعاج، والأبنوس وريش النعام. كان القدماء يسمون معبدها : «رائعة الروائع».. جاءت الأيدى المشبوهة لتشوه أروع الروائع .. تاريخ مصر... شوهت اللوحات التاريخية الفريدة ، يقترح البعض أن تترك على حالها ، يرى آخرون ترك طلقة واحدة، لتظل شاهدة... على غدر و خسة الأيدى القذرة التى لا تعبأ بدين أو تاريخ.. أو لا تفهم دينا... ولا تدين لتاريخ..

كان عم أمين ـ وهو خفير يتبع هيئة الآثار ـ يصرخ:

كفاية...

كلهم ماتوا..

حرام عليكم..

أصيب عم أمين فى ذراعه .. لم أعرف ماذا حدث له بعد ذلك، خيم علينا صمت رهيب.. . غادروا المعبد بهدوء جريت ناحية الأهالى:

الحقونا.. لسه فيه ناس فيها روح..

لن أنسى منظر الجثث التى كانت ملقاة حولى ، آذان مقطوعة.. أنوف مجدوعة..عيون مفقودة... رأيت رأسا شطر إلى نصفين... رأيت مخ سائح... استخدموا السونكى فى قطع أجزاء من الجسد كالأثداء و..

ساروا على أقدامهم يهللون.. ساروا أكثر من نصف كيلو.. لا أمن .. ولا حكومة... ولا أى حاجة..

وجدت سائحة مازالت حية.. حملتها فتساقط لحمها.. . غصت فى الأشلاء البشرية، الدماء تتقاطر .. . تتخثر على أرض المعبد.. الرءوس مفصولة عن الأجساد.. لم أشعر بشىء بعد ذلك.. علمت أنهم نقلونى إلى المستشفى بعد إصابتى بحالة هيستيرية.. لم يحل بينى وبين الوزير تكميم فمى..

حالت بينى وبينه الطفلة المذبوحة..

كانت معلقة فى الفضاء.. تتقاطر منها الدماء..

آثرت أن ألوذ بغيبوبتى.

شرخ فى الجبل

جـريت وراءهـم بـدون سـلاح ، شـجـعنى أن أحـدهم كـان مصابا بطلقة فى صدره، ودماؤه تنزف بغزارة ، لم يستطع أن يكمل الجرى وسقط على الأرض، تنبه المتطرفون الخمسة فعادوا إليه، أطلقوا النار على رأسه، عندما تأكدوا من موته واصلوا الجرى، كان الأهالى مازالوا فى الخلف على مبعدة منى، تعقبتهم منذ نزولهم من الأتوبيس السياحى وفرار سائقه، ضربوا ضابط الكمين، لقيته حرمياً على الأرض، ربما كان هو الذى أصاب الإرهابى الأول... ماذا يريدون؟... هل يريدون قلب نظام الحكم؟... وهل تقلب الأنظمة بهذه الطريقة؟!.. هل تقبل الشعوب أن تحكمها أمثال هذه العصابات الكافرة؟... فى الجزائر قتلوا أكثر من ستين ألف شخص منذ عام ١٩٩٢ ، يهاجمون القرى المعزولة، ويقضون على أهلها ، ويخطفون من

تحلو لهم من فتياتها ، نعم... الجماعات التى تسعى إلى الحكم ذئاب بشرية تقتل الأبرياء، وتخطف النساء، منذ ما يقرب من عام تحدثت مع سائح فرنسى ، كان سائحا متحررا يسعى إلى تحرير الشعوب من أعداء الداخل والخارج، ومع ذلك .. قال بعد لحظة صمت طالت:

ـ أحيانا يهدينى تفكيرى إلى أن الحكم العسكرى الفرنسى للجزائر كان أفضل من حكم الجزائريين لأنفسهم..

رغم عذابات جميلة بو حريد ورفيقاتها ورفاقها، كدت أقول له:

ـ صدقت..

نفسى لم تطاوعنى ، هكذا ضاعت أرواح المليون شهيد من أجل التحرير هباء، قلت:

ـ إنهم ليسوا جزائريين ..إنهم عملاء الخارج فى الداخل..

ومن غشنا فليس منا.. ومن خاننا نجدع أنفه.. اجدع أنف الخائن شعبه

ـ أصبحتم فى نظر العالم قوما من الهمج المتوحشين.

ـ أفعال طخمة كافرة نذلة، ألصقت بنا ما ليس فينا.

ـ أعلم أنكم تلفظونها .. إنكم ـ فى نظر أنفسكم ـ مازلتم طاهرين..مازلتم تعيشون على تعاليم كتاب الموتى.. لكن ...

ويصمت السائح... وتظل «لكن» معلقة بينى وبينه.. يقول المراسلون إنه مع اقتراب شهر رمضان يزداد العنف فى الجزائر، هذه الجماعات لاتنتمى إلينا... إنها تنتمى إلى تلك

العصابات التى تسرق الصبية، أو تشتريهم بأبخس الأثمان من الأسر الجوعى وتربيهم على الإجرام والدعارة ، والاتجار بأعضائهم... كشفوا عن أمثال هذه العصابات فى إيطاليا والأرجنتين.. إنها عصابات أفرزتها الحضارة الغربية المنهارة.. أفرزتها نفس الحضارة التى أفرزت النازية والفاشية والصهيونية.. أكثر من عشرين ألف مسلم عرفوا «بالعرب الأفغان».. دربتهم المخابرات الأمريكية ومازالوا فى قبضتها ..صدرت بعضهم إلى الجزائر.. وحدث فى الجزائر نفس ما حدث فى أفغانستان من ذبح وتمثيل.. وفى معبد حتشبسوت حدث نفس الشيء... شقوا بالسكاكين ما بين أفخاذ النساء ، ومزقوا الأثداء.. لم يحدث ذلك فى مصر من قبل.. . مطلقا..مطلقا..

فتح أحمد عبد الباسط درجا صغيرا من أدراج البازار الذى يعمل به ، أخرج بعض قصاصات من ورق الصحف، التقط منها ورقة وناولها لى:

ـ احتفظ بها منذ عام ١٩٩٢... اقرأ..اقرأ بنفسك لتعرف إلى أى نوع من الحيوانات تنتمى هذه العصابات، التى تنتشر فى كافة أنحاء العالم، فى ظل النظام العالمى الجديد.. وتختلف جرائمها باختلاف المناخ...

كان الخبر يتحدث عن عيادة فى بوينوس آيريس تحيط بها حديقة واسعة ، العيادة مخصصة للمتخلفين عقليا، اكتشف المحققون الأرجنتينيون بذهول أن الأطباء يتاجرون منذ عشر

سنوات بأعضاء الصبية ودمائهم، وأن نسبة الوفيات مرتفعة جدا، والإدارة المالية مثيرة للشبهات. والمرضى يعيشون فى ظروف سيئة للغاية، منهم من يجوبون الممرات فى ثياب رثة يتضورون جوعا، ومنهم العراة، والعلاقات الجنسية تتم بالحديقة، قال أحد الحراس إن عمليات استئصال سرية لقرنيات العيون تجرى فى الليل... وقال وزير الصحة الحالى إن هناك تفاصيل..

عندما ناولته القصاصة، ناولنى غيرها... كانت تتحدث عن وقائع مشابهة تجرى فى المستشفيات الإيطالية، مع الصبية النازحين من روسيا ، ومناطق الكيان اليوغسلافى السابق وألبانيا و..

قابلت اثنين من ضباط الشرطة.. رفضا أن يتقدما معى .. قلت لهما إنى سأموت لأمهد لهما الطريق، لكنهما تخاذلا، طلبت منهما سلاحا ... قالا: إن السلاح عهدة... قلت لأحدهما : والله لو معايا سلاح لضربتك قبل ما أضرب الإرهابيين، استغثنا بضابط اسمه أحمد من القوات الخاصة، هذا هو البطل الحقيقى.. تقدم معنا... كنا فى المقدمة والأهالى خلفنا، شعر الإرهابيون بالإرهاق، دخلوا شرخا فى الجبل. سرت بهدوء وحذر نحو المغارة، فوجئت بصيحة جماعية: لا إله إلا الله... أعقبتها طلقات جماعية داخل المغارة، دخلت فوجدتهم ملقين على الأرض يسبحون فى دمائهم، كانوا يشكلون دائرة، وضربوا النار فى رؤسهم ،

أردت التقاط جهاز اللاسلكى، أمسك إرهابى يحتضر بطرف جلبابى ، صرخ:

الحقينى يا أمه

ضغط على زناد سلاحه، انطلقت رصاصة أصابتنى فى الحوض... لم أشعر بشىء بعدها.



زينب هانم

لبيتها الصغير حديقة صغيرة، خلفه حديقة كبيرة، بها شجرة تمر هندى، ونخلة تثمر بلحا أصفر، وأحواض صغيرة خضراء، وأخرى ترابية، وعشش للدواجن خالية، التقطت بعض العيدان من أحد الأحواض، كانت بقدونس ، اعتدت أن ألتقط عودين عندما أشعر برغبتى فى مداعبة طعمها، يحدث ذلك كل يوم أو يومين، ربما عندما أحس بالجوع، أخبرها ابنها، ألمحت لى من بعيد كأنى شخص كبير، لو كانت أمى لحدثتنى صراحة ، وأفهمتنى ما تريد، كانت تلميحاتها أقسى من أى تصريح، هل قطع بعض العيدان حرام؟... ابنها التقطها أمامى ففعلت مثله، وعرفتها، لم أكن أخفى الأمر على أحد، كنت أجوس فى الغيطان القريبة من بيتنا فى وجود أصحابها ، كنا ننبش الأرض بحثا عن جذور البطاطا

الرفيعة، أحيانا كنا نقع على جدر كبير غفلوا عنه وكنا نأكل الكراث أبو شوشوة الشايخ، كانت زنابيخه تحمل بذورا مازالت طرية. الزنابيخ وبذورها مثل العسل ، لم يكن يلتفت إلينا أحد، أطفال يحجلون مثل طيور أبى قردان ، أبو قردان يلتقط الدود، لابد أن لنا أيضا فائدة ربما اتصلت بقسمة الأرض، أو بما تلتقطه العصافير، أو إشاعة البهجة يوم الجنى.

كانت أمي تسميها أم قورة، كانت قورتها ـ فعلا ـ مثل الزلطة الداكنة، أما زوجها فكان رجلا طويلا مليح الوجه، أبيض البشرة، نائر الكلام، كانوا يقولون له: على بك... صعب على عندما سمعتها تنهره: قلنا كان بياع فجل أحسن، ولا يرد ، توددت إليه لكنه كان محايدا وديعا، لا يخاطبنى ولا يعبس فى وجهى، مرة دخلت عنزة حديقة البيت، يبدو أن زينب هانم كانت تريد أن تستولى عليها، عندما تمسح بعض المارة بباب الحديقة، أصرت على تسليمه للبوليس، ذهبت بها ابنة كودية الزار، وذهبت معها.

كانت ابنة الكودية رشيقة شجية الملامح، عندما كانت تسير فى السوق بملاءتها الحريرية، كانت تهتز أركانه، حتى الأجنبيات كانت تسترعى تتهن والسيدات اللاتى خلعن البراقع فالملاءات ربما تحسرن على خلعها، دخلت الفتاة بالعنزة فنهرها الضابط، تلعثمت ، بالكاد استطاعت أن تكون جملة مفيدة..

- اسمه إيه ؟..

- على بيه

- نعم!!.

- على بيه

- بيه!!..

- أيوه..

- اسمه كده؟

- ...

- انطقى

قطعت النطق ، فصرفها..

يزور الأسرة قريب لها فى كلية البوليس ، تعنى الأم بمظهر البنت فى حضوره والبنت تتأفف ويصيبها السأم من كثرة التوصيات، كان ابن زينب هانم فى مثل سنى، أخته عذب سمارها، تماما مثل سمار النوبى الذى أنقذنى .. البنت رقيقة. أما الولد فخبيث ، كان يعرف كل الألفاظ المكشوفة المحرم نطقها، ينطقها أمام أمه صراحة كأنه لا يعرف معناها، ويدعى أنه سمعها منى، ذات يوم كسرت البنت آخر إحدى الكلمات وهى تتدلل متصنعة البكاء، استنكرت الأم الأمر...

- إيه؟!...

نطقت الكلمة التى لا أذكرها بطريقتى والابتسامة تعلو وجهها ، ثم ضحكت قائلة:

ـ صحيح.. دخل الضيوف بيتنا... خسروا لهجتنا !!..

ضحكت معها خادمتها .. لا أعرف إن كان مثلا قديما استدعته اللحظة، أم أنه من ابتكار الموقف.

علمت من الابن ـ فيما بعد ـ أن الزائر خطيب أخته ، ذكر ذلك أمامها، ربما لم تكن تعى شيئا، شاهدت ابتسامة طفلة على شفتيها كأنها تلعب ، لم أعبأ كثيرا، كنت أريده أن يلتفت إلى... لكنه لم يكن يرانى، ليس محايدا كعلى بك، كان غير عابئ، يأتى أحيانا ببدلة الكلية، يبدو كما لو كان فى مهمة رسمية محددة، يحاول أن يكون ظريفا خلالها.

كان فى سمار الطفلة، وكان مليحا، كنت أحبه، فكرت فى أن أكون مثله، يأتى مع قريب له يرتدى جلبابا أنيقا كانت الخادمة تفرح بزيارته ، وتتلكأ أمامه عند استدعائها لأمر، وكان ـ أحيانا ـ يحدثها حديثا عابرا عن أمها وأخواتها، وقد يطول الحديث فى غيبة زينب هانم.

يدور الحوار بينهما وبين زينب هانم غالبا، على بك مجرد مظهر ، يبدو أنهما كانا يعرفان ذلك، كانت تتحدث أمامهما عن أسرته العريقة... وعن رحلات الصيد التى كان يقوم بها... وعن العبيد الذين كان يضع الأقداح والأكواب على رءوسهم ، ويطلق النار من مسافات بعيدة عليها. أحيانا تقول ببندقيته ، وأحيانا بمسدسه، كانت تحترمه أمام الناس ليبدو البيت متماسكا، وكان يحبك الدور ، لكن يخيل إلى الآن أنه كان يخشى تقلباتها أيضا، كان يجيب على أسئلتها بابتسامة

تبدو واثقة.

هل تستطيع أن تفعل ذلك الآن؟..

لنضع كوبا على رأس...

عندما يبدأ فى الهمهمة كانت تنأى به عن الحرج بتوجيه السؤال إلى غيره..

هل توافق؟..

تصنعت الجرأة لكنى كنت منهارا..

ثم لماذا أنا؟..

هذا السؤال دار بخلدى فانقبضت نفسى..

هل أنا من العبيد أو الخدم؟..

ولماذا لايكون ابنك؟...

لدى أبوان يخشيان على كما تخشين على ابنك... ولا تجرؤين أن تتحدثى بمثل هذه الطريقة أمامهما.

حديث الضابط وقريبه يرجعان بالمداعبات حتى آخر لحظة. فى آخر مرة رأيته فيها خطيبا كنا نودعه حتى باب الحديقة كالعادة. كنا فوق السلم، وكان يقترب من الباب، قال ردا على سؤال لزينب هانم:

أهم شيء نعمل محاضر لبتوع البطيخ .

علت ضحكاتهم .

ابتسمنا نحن الصغار لقهقهاتهم .

يبدو أنه كان يصل حديثا عن البطيخ الذى - ربما - كان يزرعه قريبه .

البنت لا تتجاوز الثمانى سنوات!!... تزوجها - فعلا - فيما بعد. عجيب أمر هذا الضابط الذى عين فى القلم السياسى فور تخرجه، وطرد فى عهد السادات و أنشئ المكتب السياسى - كما قالت لى زوجة أبى اليونانية - بعد اغتيال ناظر النظار بطرس غالى سنة ١٩١٠ بيد الفدائى إبراهيم ناصف الوردانى، وعقدت رئاسته لمأمور الضبط جورج فيلدس، وأمدته الحكومة بعدد كبير من العاطلين والمتسكعين الذين شكلوا البوليس السرى، ورصدت له الأموال الباهظة لينفق منها بلا رقابة، واختص بمراقبة وتتبع ورصد تحركات ونشاطات الشباب الوطنى، وتقديم التقارير السرية عنها..

هل كان هذا الضابط يؤمن بأن يأخذها صغيرة ويربيها على يديه؟!... كانت هذه النظرة منتشرة فى ذلك الزمان!!... عانيت منها مرة، كان عمرى أربعة عشر عاماً، اختطفوا سناء التى كانت فى مثل سنى، وقتها، كرهت الكبار لأنهم يجهضون أفراحنا ، كانت الحب الوحيد الذى خفق له قلبى.. ومازالت ذكراها من الذكريات العذبة..

التهمت زينب هانم قيمة الأرض التى باعها أبى، والتهم هذا الضابط ورفاقه - بعد اعتقالى - قيمة البيت الذى اشترته أمى، لم يستطع أبى أن يحصل على شقة بإيجار مهاود، باع قطعة الأرض لشراء بيت فى عزبة النخل، عرفت الناس طريقها إليها أيام الحرب، نصحته زينب هانم ألا يلقى نقوده فى تلك الضاحية النائية ، أوصت عليه رقية هانم قريبتها التى

تمتلك عمارة بشارع الجسر بشبرا، وفرت له حجرة بمنافعها فوق السطوح، إذ كان على الولد أن يقعد عندى لحين حضور أمه، أعطاها أبى ثمن قطعة الأرض، ومدخرات أخرى لحفظها خشية فقدها.

زرتها مع أبى، كانت وحيدة ابنة خالته الوحيدة، تربى عمى الكبير معها فى قصر خالته بحلوان ، كان جدى دائم التنقل مثل أبى فآثرت الخالة أن تريح عمى من التنقل بين المدارس، لما رفض الاقتران بزينب هانم انقطعت الصلة، حدث أن نقل أبى إلى القاهرة فزارها، عندما استولت على مدخراته انقطعت الصلة مرة أخرى، تقول أمى إنها ابنة أغا. دخلت مدرسة خليل أغا زائرا لبعض أصدقائى الذين كانوا معى بمدرسة باب الشعرية الابتدائية فعرفت معنى الأغا. لا بد أن أمى كانت تقصد معنى آخر غير القائد، أو الخادم الخصى الذى يؤذن له بدخول غرف النساء، ربما كانت تقصد الخادم ، ولكن غير الخصى، أمى كانت لها مصطلحات تخصها أزعم أنها انتقلت إليها عن غيرها، لكنى لم أسمعها إلا منها، وكان لها أيضا مصطلحات ومسميات من ابتكارها..

لا أعرف حتى الآن معنى الكخيا، المعنى الذى تقصده أمى لا المعنى الصحيح، كانت تشير إلى إحداهن قائلة: دى الكخيا بتاعتها، هل كانت تقصد المعنى المنحوت من كلمة كتخدا الفارسية، وهو فى الأصل: رب البيت، ويطلق عند الفرس على السيد الموقر والملك، وعند الترك على الموظف المسئول والوكيل

المعتمد والأمين؟...

لا أعتقد ، كانت تقول لأحد أقاربنا من باب السخرية روح يا شيخ وأنت عامل زى الكخيا، ربما حكم دمياط كخيا مسخرة فى يوم من الأيام، مازالت خصاله عالقة بالأذهان التى تناقلتها عبر الزمن، وإن نسى تاريخه، عندما كانت ترى نفس القريب مع صديق لم يكن يفترق عنه تقول: والنبى انتو عاملين زى شاتيلا وزميله ، هل كان ثمة شخصان أهبلان لا يفترقان عرفتهما أمى، وكانا مشهورين فى زمان صباها، أم أنها تجتر الموروث أيضا..

عشت حتى مأساة صبرا وشاتيلا ، وعرفت آرئيل شارون السفاح الذى تآمر على قتل المئات فى المخيمين ، ثم دنس المسجد الأقصى، ورأس الحكومة الإسرائيلية تتويجا لبشاعاته، ومازال يقود عمليات الإبادة القذرة بكافة أسلحة البطش ضد الشعب الأعزل، على مرأى ومسمع وتشجيع من النظام العالمى الجديد.

وصلها - ربما عن طريق جدتى - أن أمى تسميها العبدة أم قورة، كانت أمى تتندر على أبى - فى غيابه - لأنه لا يذكر اسمها إلا مقرونا بلقب الهانم، تضحك: زينب هانم أم قورة، كان أبى يريد أن يصل ما انقطع فزارها وجدتى أكثر من مرة، ثم زارها وعمى الكبير بعد أن أخبره أنها تسأل عنه، ولا تذكره إلا بكل خير، لا يستبعد أن تكون الوشاية من عمى أو امرأة عمى، أقسمت زينب هانم أن تزوج أبى، وأرادت أن

تزوج عمى من ابنة الكودية، ربما كانت تريد أن تصبح زعيمة العائلة كما كانت أمها ترعى العائلة حقا، توفاها الله دون أن تحقق رغبتها، وتطمئن على ابنتها الوحيدة مع عمى.

كانت زيارات كودية الزار متقاربة، مرة وحيدة أقامت زينب هانم زارا أثناء إقامتى عندهم، كانت تقطن الدور الأول من عمارات متشابهة ربما كانت تتبع المطار، يقطن الأدوار الثلاثة العليا طوائف من العمال وصغار الموظفين، لم تشأ زينب هانم أن تختلط بنسائهم، حتى بعد أن عقد الزار أواصر قربى بينهن، الأدوار الأولى فى العمارات المواجهة كانت بلا حدائق، ويبدو أنها ذات مستوى أرقى، يقطنها خواجات وبعض جنود الاحتلال البريطانى، أيام الآحاد يطلون على عازف البيانولا عصرا، ويمطرونه بالعملات المعدنية، عندما سمع الجنود الإنجليز دقات طبول الزار دخل بعضهم الحديقة على استحياء باسمين ، رأوا النساء وهن يتطوحن فى الصالة، ربما عدوا الرجل ذا الشعر الطويل من النسوة أيضا، يبدو أنهم كانوا يمنون أنفسهم بالمشاركة ، لما لم يدعهم أحد انسحبوا صامتين، بعد إفاقة زينب هانم أخبرها النسوة، شاهدنا على صفحة وجهها أمارات دهشة باسمة. تبدو أنها لم تكن تمانع فى استضافتهم.

فى هذا اليوم أحسست بالجوع إلى حد البكاء، لم أر أمى وخالاتى بين النساء، خجلت أن أقول إنى أبكى من الجوع، قلت: بطنى بتوجعنى، إحداهن كانت مثل أمى وبنات خالاتى،

فهمت ما أعانيه، ربما عانته ذات يوم، ربتت على كتفى وحدثت زينب هانم ثم قادتنى إلى المطبخ وأعطتنى شقة بجبنة: دلوقت ناكل.

زرت الكودية مع عمى، كانت تسكن فى حى شعبى لم يصادفنى مرة أخرى عندما كبرت واعتدت التجوال فى شوارع القاهرة القديمة. كان يغص بالمبانى المهدمة والمساجد الأثرية التى تحولت إلى مقالب زبالة، وكان سوقه فقيرا تسعى فيه الخراف، وتتناثر أماكن باعة خضرواته وتتباعد، لم يكن عمى بريئا مثل أبى، كان معروفا منذ يفاعته بالشقاوة والسهر، حكى لى أنه فى أيام التحاريق كان يتوجه إلى كنيسة سان جوزيف (القديس يوسف) بشارع محمد فريد، ويضع فى صفحة التبرعات عملة صغيرة على اعتبار أنها جنيه ذهبى، ويستولى من الصفحة على تسعين قرشا، كأنها باقى الجنيه، يبدأ سهرته بكازينو صوفر، يطلب زجاجة بيرة، كانت مزتها متعددة الألوان مشبعة تغنيه عن العشاء، يدفع أربعة قروش ونصف، ويترك نصف القرش للجرسون الذى يشيعه بالبسمات ويستقبله بالتحيات فى كل مرة، وقد يخرج بغادة تقضى معه بقية السهرة.

لم يستمر زواج أبى من السيدة اليونانية طويلا، أنجب منها طفلا توفاه الله رضيعا، قالت أمى إنه كان يدخل البيت فيجدها تجالس الرجال، أخبرها أن ذلك يتنافى مع تقاليده فلم تهتم، ذكر لى أبى - فيما بعد - أن أمى تبالغ كعادتها،

وأنها سيدة محترمة، يرجع سبب طلاقه إلى أنه نقل إلى الزقازيق، ولم تشأ أن تترك عملها النقابى، كانت تعمل فى محلات داود عدس، وكانت نقابية اشتركت فى مظاهرات ١٩٤٦ وسجنت فى عهد صدقى، يقول إنها كانت تشبهنى فى أمور كثيرة خاصة القراءة، ظل أبى يساعدها حتى آخر أيامها، عندما طاب لنا المقام بحلوان، كان يقابلها فى ركن فاروق الذى يسمى الآن ركن حلوان. ويرسلنى إليها عندما يكون مشغولا، لم يقل لى لا تقل لأمك، ولم أكن أقول لها، بعد وفاة السيدة اليونانية عرفت أن أمى كانت تعرف كل شىء، ولم تقل لى هى أيضا شيئا، لا أتصور أن أبى كان يحكى لأمى طواعية، هو أيضا ليس مسامرا جيدا. دائم التحليق فى أماكن أخرى غير المكان الذى يجلس فيه، مشغول دوما بعمله، لكنه عندما يسأل لا يخفى شيئا، لا بد أن طرف الخيط كان مكالمة تليفونية سمعتها أمى، أو صورة وجدتها بين أوراقه.

عرفتنى السيدة اليونانية بالشاعر السكندرى كفافى قبل أن يعرف فى مصر، وترجمت لى بعض قصائده عن اليونانية، يقال إنه كان يكتب نحو سبعين قصيدة كل عام، ويحتفظ بأربع أو خمس منها فقط، من بين القصائد التى أوصى بعدم نشرها، قصيدتان كتبهما فى وقت مبكر، تشيان بانفعاله بحدثين وطنيين راح ضحيتهما شابان مصريان، الأولى مستوحاة من أحداث دنشواى، الحدث الثانى الذى تابعه كفافى باهتمام كان محاكمة إبراهيم الوردانى، وقد حرص

على تجميع وحفظ بعض قصاصات الصحف، وأضاف إليها هذه الملاحظة: أظهر الشعب المصرى تعاطفا مع الوردانى، بدافع الشفقة بالفرد، وليس - على الأقل بين أكثرهم تطورا - بدافع تأييد الفعل، وقد كتبت إحدى الصحف الإيطالية التى تصدر فى مصر توصى بأن يؤخذ بالرأفة.. بعد تنفيذ الإعدام فى الشاب البائس، سارت مظاهرات مصرية عديدة تعاطفا معه. وكتبت القصائد فى مديحه، ولبس طلبة مختلف المدارس العليا أربطة عنق سوداء حدادا عليه، وكانت هناك تجمعات حول قبره، وألقيت الخطب الجياشة بالعاطفة، وحمل الأصدقاء الورود.

وسجل عنوان قصيدته عن دنشواى اليوم والساعة واسم الشهيد فجاء هكذا: «٢٧ يونيه ١٩٠٦، الساعة ٢ ظهرا يوسف حسين سليم» ويوحى العنوان ببساطته التسجيلية أننا مقدمون على وصف تسجيلى لحدث واقعى، ثم سرعان ما يتضح أننا أمام قمة أدائية عالية تسرب الإحساس العميق إلى كل ذرة من ذرات الواقع، ويأتى التسرب أو التخلل آية من آيات الإعجاز.

عندما أخذ المسيحيون وشنقوا
الصبى البرىء ابن السبعة عشر عاما،
أمه، التى جرجرت وضربت فوق التراب
هناك تحت أعواد المشنقة
تحت شمس الظهيرة الحارقة

عوت ، صرخت مثل ذئب، مثل دب،
وبعد أن أعياها الوصب، راحت الشهيدة المسكينة تنعى.
«ولقد عشت سبعة عشر عاما فقط بالنسبة لى يا ولدى».
وعندما صعدوا سلم المشنقة
ومرروا الحبل، ولفوه حول عنقه.
الصبى البرىء ابن السبعة عشر..
وكان معلقا فى الفضاء بصورة تدعو للرثاء
فى تشنجات كربه الأسود
ذلك الجسد اليافع الجميل الصنع
أمه المستشهدة تدحرجت على الأرض
ولم تعد تنعى السنوات
لقد نعيت «سبعة عشر يوما فقط»
«نعمت بك سبعة عشر يوما فقط، يا ولدى»
بشر أبى زينب هانم بوقوعه على بيت لقطة، وطلب منها نقوده..
طردته..
فلوس إيه يا جربوع!!..
اختصرت الطريق دون مماطلة أو تسويف..
حتى الولد الذى يقولون إنه مؤدب وابن مدارس راقية شتمه..
هكذا قالت أمى لجدتى .
تذكرت عندما كان الولد يفرح بقدوم أبى، كان يأتى محملا

دائمـا، ولم يكن ينهى زيارته إلا بعد أن يضع فى يد كل منا
نصف فرنك تزينه صورة الملك فاروق بطربوشه الأنيق.

كانت عملة فضية سداسية ، أحيانا كانت تطلى بماء
الذهب، وتبدر على الرءوس فى أفراح الأغنياء.. شاهدت ذلك
فى حلوان، كان الأطفال يتزاحمون لالتقاطها.

بعدما يقرب من ثلاث سنوات من القطيعة، رأيت على بك
يسير بين ابنه وابنته فى بداية عام دراسى بالفجالة، كانت
هذه آخر مرة أراهم فيها، يبدو أن زينب هانم كلفته بالقيام
بهذه الرحلة لشراء الأدوات المدرسية بثمن زهيد كانوا
مبتهجين ، البنت تشرئب لتتطلع إلى وجه أبيها الباسم وهى
تحادثه، والولد ينقل بصره بين الفاترينات والناس فى حبور،
لمحنى على بك وتصنع عدم رؤيتى، كذلك فعلت ، لم يتغيروا،
كم كنت أتوق إلى السلام على على بك وابنته، كذلك كانت بى
رغبة إلى تحدى الولد ابن الحرامية.

على بك ليس بيك، ولا حتى أفنديا... إنه يعمل ميكانيكيا
بالمطار، قالت أمى ذلك لجدتى، يبدو أن كلام أمى صحيح، كنا
فى زمن الحرب، وعز الحصول على إطارات السيارات، رأيته
يفرج أبى على الإطارين الأماميين لسيارته الهلمان القديمة
من خلال حديثهما عرفت أنها إطارات طيارة ، ادعى لرؤسائه
أنها مستهلكة وهى بحالة جيدة، يبدو أنه كان يتباهى.

كانت جدتى تنحدر من أصل تركى، ومع ذلك تزوجت
أختها الكبيرة عبدا من عبيد السراى المحررين.

هكذا كانت تقول أمى.

قالت جدتى:

- هو من أسرة طيبة حقا لكنها قهرته... رجل يتحط على الجرح يطيب.

بعد ما يقرب من عشرين عاما قرأنا فى الصحف أن رجلا فى مصر الجديدة، تربص لزوجته تحت «ترابيزة السفرة»، وأطلق عليها النار من بندقية خرطوش بروحين ، كانت بندقية أبى، أهداها إلى على بك أمامى، كم حزنت من أجلها ، لا بد أن عمارة الزوجة التى أشارت إليها الجريدة ساهمت فى بنائها مدخرات أبى المنهوبة، هرع أبى إلى زوج ابنتها الذى كان مازال يعمل فى المباحث العامة بعد وقوفه على التفاصيل من طليقته اليونانية، أخبره وهو يضحك أن أمين الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى قال له:

- بقى تحكم القاهرة كلها ومش قادر تحكم بيتك؟!.. وأنه أدخل حماه مستشفى الأمراض العقلية اتقاء للفضيحة.

تجربة خاصة

أمس فقط سمعت شيئا رهيبا، كان محدثى من حزب الوفد، كان يحاول إقناعى برئاسة لجنة حلوان ، أثخنتنى الجراح لكنى مازلت واقفا، أخبرته أنى لا أثق فى هذه الأحزاب المصطنعة، إن فى الانضمام إليها تضحية بآلام عظيمة، لشعب عظيم، لم يجرنا الحديث عن العظمة إلى شيء .. وجرنا الحديث عن الآلام إلى جوهر كل شيء..

شاهد فى سجن طرة مشهداً لم يتحدث عنه أحد حتى الآن، رغم كثرة ما كتب من مقالات ومذكرات.

يوجد كشك خشبى فى أحد الأفنية يصطف النزلاء أمامه صفين، يلتقط أحد العساكر مسجونا من أى من الصفين.. يبدو الاختيار عشوائياً... هكذا يبدو. إن هى إلا لحظات حتى يأتى طبيب ذكر اسمه كامل، يدخل الحجرة خلف

السجين... لحظات أخرى ويفتح الباب ، يخرج السجين عاويا عواء كلب مسعور.. يتحول إلى كلب حقيقى مسعور، أو يموء مواء قطة... قطة حقيقية... مسعورة ، يدور فى الفناء وهو يعوى أو يموء... عندما يبدأ الهجوم على من بالمكان يطلقون عليه النار!!..

كنت أثق فى محدثى، وأنحنى لعذاباته..

هل جسد له ما لاقاه من تعذيب هذا المشهد البشع؟..

هل هيأ له الوهم الكشك الخشبى .. والصفين الجالسين القرفصاء.. والطبيب الذى يدخل الحجرة بمعطف أبيض، وحقيبة تخرج منها - لا بد - الحقنة والمصل... والقوة المسلحة التى..؟!..

أكل هذا من أجل التأديب؟!..

أم الانتقام والتشفى؟!!..

انتقام القوة من الضعف!!..

تشفى المسلح من الأعزل!!..

الحاكم من المحكوم منذ خطوات ما قبل التاريخ!!..

وأين قوة بشرية تستطيع أن تقف فى مواجهة الخسة الوحشية المتجبرة؟!!..

يبدو أن محدثى شعر بما انتابنى، أخرجنى من الجحيم إلى الجحيم:

كان لهم فى كل فترة ضحية ، الذين شاهدوا لا يعودون .. الذين شاهدوا انسحقوا.. ماتوا و هم أحياء، فى كل مرة

يأتون بمساجين جدد.. ربما من شتى السجون... والمعتقلات، أتصور أنهم كانوا يعيدون أيضا نفس المساجين.. ربما بحكم العادة حتى يأتى وارد جديد... ربما استعذابا بالتنكيل... للتسلية... للتدريب... لايسألون عما يفعلون

هل هيأ له العذاب كل هذا!؟..

محتمل أيضا أن تكون إشاعة أطلقها الزبانية أنفسهم لبث الرعب فى نفوس الضحايا ، غدت الإشاعة حقيقة عششت فى أعماق مخيلاتهم... أضيفت إلى تجاربهم .

طلب محدثى أن أترك له تحديد موعد مقابلة الباشا ، أحترم الباشا وأقدر تاريخه الطويل، إنه العبير الباقى من سعد زغلول ومصطفى النحاس.. لم أرد ، كنت شاردا أبحلق فى عينيه .. فى الفضاء عبر النافذة .. فى اللاشىء، حين تركنى لم أنهض ، كانت التجربة تشق لها طريقا بين تجاربى الخاصة.

أخبرنى أبى أنهم ادعوا صداقته ، وكانوا يصحبونه - أحيانا- فى مهماتهم داخل السجون، رأى الشهيد عبد القادر عودة و هم يقودونه إلى حبل المشنقة ، سمعه يتمتم:

اللهم اجعل...

كل قطرة من دمى..

لعنة على الظالمين.

اتهمت بالتحريض على نسف منشآت الثورة، كان ذلك فى بداية الحركة المباركة، لم يكن لها منشآت، وكنت فى السنة الثانية بكلية الحقوق، باعت أمى بيتها الصغير فى دمياط، واشترت بيتاً صغيراً فى زقاق مسدود متفرع من حارة صارى جلة بباب الشعرية، باعه أبى بعد اعتقالى ، كانوا يبتزونه... ويرعبونه حتى أصيب بانهيار عصبى ، ظل

صامداً إلى أن أفرج عنى فهوى..

كنت أقف بجوار الحائط عندما مروا به، كان شامخاً... لم أستطع النوم بعدها، كنت أراك تساق مثله إلى حبل المشنقة، لم أتصور أن تكون، كنت مازلت مثل العصفور... عصفور أزغب طرى العظم، عبث الأطفال فى عشه واختطفوه أمام والديه.

كانا ينظران إليه هلعين مرتعبين.

هل طرت من أجل نفسى أم من أجلك؟...

سلامتى أم سلامتك؟...

عندما يطير العصفور تاركا وليده بين أيدى الزبانية..

هل يطير من أجله، أم من أجله؟..

من أجل نفسه أم من أجل نفسه؟...

وما نفسه؟... وما نفس ولده؟..

فى حياة ولده حياته..

حياته حياته..

كان زوج ابنة زينب هانم وأقرانه يصحبونه إلى المحلات الكبيرة يتسوقون ويدفع أبى، فى كل مرة يدعون التعفف ويصر أبى، حتى بعد الإفراج عنى كانوا يطلبونه فرادى.. فى البيت... وفى العمل.. أوحش كلا منهم على حدة.. اصطحبه أحدهم إلى محلات كرنفال دى فينس واشترى «كرافته» بثلاثة جنيهات ، كان قماش البدلة لا يزيد على هذا السعر، كان لا بد أن يصر، وكانوا يقبلون فى النهاية. قال أحد الضباط

لأبى أثناء ارتيادهما شيكوريل، إنه يدعى أنك بلدياته ولست قريبه.. وأن زينب هانم ليست ابنة خالتك، ولا صلة لك بها، وأنه من الذين لا يؤمن جانبهم..

يكرهون بعضهم بعضا..

تتضح هذه الكراهية عندما يثقون فى محدثهم..

أو يوهمونه بأنهم يثقون به..

ولإفهامه أنهم وحدهم الذين يساعدونه.

هل طار خوفا وهلعا، أم اعتقادا منه أنه بطيرانه يستطيع أن يفعل شيئا؟.. أن يحمى ابنه!... رب علمنى لغة الطير.. أو احلل عقدة لسانه..

طار أو لم يطر.. ماذا يمكننه أن يفعل ؟..

لكنى لم أطر..

هم الذين اختاروك وتركونى...

تركونى أتتبعك فى دار الحصار..

خطوة..خطوة..

من .. إلى...

حلقت فوق قسم الشرطة الذى حجزت به..

غصت فى سراديب المباحث العامة وردهاتها الطويلة..

يوم الإفراج أدخلونى حجرة ضابط دقيق، ضعيف البنية، هادئ الصوت، ربما كان من الأفضل أن يكون موسيقيا ، اعتدت أن تنقلب هذه الهيئة بقدرة فاجر إلى ثور خسيس يعى ما يفعل. دخل أبى وراء زوج ابنة زينب هانم، لم يقم الضابط

من على مكتبه فى آخر الحجرة، يبدو أنها بعض الإشارات التى دلت بين الضابطين على حفلة التدشين.

كنت أسمع عن هذه الحفلات وما يدور فيها.

أراد قريبنا أن يرضى أبى على ما يبدو ، أشار إلى الضابط الرقيق إشارة خفية التقطها بانتهاء الحفل بمكتبه. ربما لم يشأ أن يظهر بمظهر المقصر.. رغب فى أن يبدو كما لو كان يصل ما انقطع من توبيخ:

ـ أصله ما يعرفش أبوه كان إيه؟!..

قلت بحسم:

ـ أنا أعتز ..بل أفخر بتاريخ أبى كله..

أكدت على لفظة «كله» .. تطاير الشرر من عينيه، وتحفز لصفعى.

أغمضت عينى للحظات بصلف استعدادا للصفع، هذا كل ما كنت أملك من أفعال التحدى..

وماذا بأيديهم أن يفعلوا أكثر مما اعتادوا..

وخبرناه ، سواء بالتجربة أو بالسماع؟..

حتى الآن.. كلما رأيت عصفورا يحجل أو يطير يتمزق قلبى ، أقدر حسرته ومدى انفعالاته ، رغم أنى لم أتعلم لغة الطير.. ولم تحل عقدة لسانه..

هل كان العصفور يبكى أيضا؟..

طرت أو لم أطر..

ماذا يفعل العصفور أمام قط برى متوحش.. أمام قط..

قط فقط..

ربما استعملت عقلى أكثر من العصفور ، ضغطت على قلبى، وتركت عقلى يعمل بلا قلب، قلب عقلى لم يكن يتركه.

وعقل قلبى كان ينتفض..

فتحت عينى بلا رهبة..

ربما بغضب..

ارتخت يده..

نظرت إلى الضابط الآخر فوجدته متحفزا..

- تاريخ مشرف صحيح...

قالها ساخرا وهو يترك الحجرة، وابتسامة صفراء تعكر وجهه ربما خجلا من الضابط الآخر.. لكن الموقف أجبره على احترامه.. خفت حدة سخريته حتى انمحت .. اصطحبنى إلى حجرته باسما:

- لا تعتقد أننا مزقنا ملفات الجزار وإبراهيم إمام..

كانا من أشهر ضباط القلم السياسى الذى صار اسمه المباحث العامة ، والآن مباحث أمن الدولة ، أراد الجزار بعد طرده أن يبدأ من جديد، التحق بكلية الحقوق جامعة عين شمس، داخل الكلية ضرب علقة ساخنة .. فتاب ..

- إننا مازلنا نعتمد على ملفاتهما..

نسير على هداهما..

ومن يأتى بعدنا سيسير على هدى ملفاتنا.

تناهى إلى صوت أم كلثوم من جرامافون عمك عبد الله

جرجس، فى لحظة انتباه طارئة سمعتها:

وما هو ماء..

ولكنه..

وريد الحياة وشريانها..

هل هو ماء أم دموع؟..

دموع ملايين بلا حصر..

دموع الضحايا عبر آلاف السنين..

يوم أرادوا تدشينك رأيتك عظيما مثله..

رأيتك شامخا..

لم أجرؤ على الاقتراب من أرصفة الحدائق ، للحدائق قصور وبيوت، كبيرة وصغيرة مغلقة، سرت فى وسط الشارع الأسفلتى اللامع، من شارع لا ينتهى إلى شارع لا يكاد ينتهى، لم أر أمامى سوى بحيرات سراب، تنسحب خطوة كلما تقدمت خطوة ، كانت تسليتى الوحيدة ، تلك هى البرك الصغيرة التى ذكرها القرآن الكريم، أميل إليها منذ أن فسرها الشيخ عمران مدرس الدين: « يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا »، مازلت أذكر كلام الشيخ: لا يكون ذلك إلا فى نصف النهار..

اكتويت بألسنة اللهب فى الشوارع النظيفة ، أبحث عن قريبة أبى الثرية، لم أكن أعرف أن صلتنا بها انقطعت، كان لديهم كسارة بندق، ومكتب له غطاء خشبى كالمنفاخ ، يسدل

عليه فيغطى ما فوقه، ويصبح على هيئة البيانو..

أحسست بأنى تهت..

وجدتنى على حافة صحراء يلفحنى صهدها..

صرخت..

نقلنى الرعب إلى الرصيف، تمسحت بأسوار الحدائق، والصراخ يكاد يشق حلقى ، أحيانا ينحبس صوتى كالغصة، خرج نوبى مشرق الوجه من خلف أحد الأبواب الحديدية القصيرة.. خرج آخر من باب الحديقة المجاورة.. وثالث من حديقة فى الجانب الآخر، كانوا يتحدثون بصوت منخفض ، كأنهم يخشون تمزيق الصمت، ويسدون المعروف وهم غير مؤهلين له، أو من غير أهله، أو أنه أكبر من أحلامهم، الصبى الذى يقف بينهم يبدو أنه من أبناء السادة: البنطلون القصير، وحافتا الجورب المطويتان فى إتقان عدة طيات ، والحذاء الأسود الذى لم يخف الغبار لمعانه، والشعر..

فهمت من تحاور الرجل النوبى المشرق الوجه مع أصدقائه، أنى ركبت مترو غير المطلوب ، كنت أظن أنها جميعا تؤدى إلى اتجاه واحد ، دلنى على الطريق إلى باب الحديد..

وقفت حائراً..

لم أكن بدأت أمسح دموعى..

شعر بأنى لا أحمل نقودا..

أخرجت نصف قرش ومليمين، جمعوا من بعضهم عملات

معدنية صغيرة: بضع مليمات، ونكلة، وربما نصف قرش أيضا، أكملوا ما معى، ورد الرجل ما تبقى معه إلى أصغرهم ، والفيللات والقصور غارقة فى سكون الظهيرة.

حين ركبت المترو الذى يبرق بعكس الترام هدأت نفسى، لم يكونوا اخترعوا النايلون بعد، بعد انتشاره سار ترام جديد فى القاهرة فسماه الناس الترامواى النايلون، قرأت أنهم فى أمريكا أقاموا تمثالا للنايلون على هيئة ساق نسائية. رأيت صورته فى مجلة: «الاثنين والدنيا»، كانت الجوارب النايلون قد انتشرت بين النساء ، حدث ذلك بعد نشوب حرب فلسطين، اشترى لى أبى حزاما نايلون، أذكر أنى كنت أجد متعة فى عضعضة طرفه، كان سميكا ، تركت عليه آثار أسنانى.

مر المترو بين الجدران الحجرية التى أستريح لها، الآن اتسخت وانتشرت تحتها برك مائية خضراء آسنة، يبدو أنها من أثر المجارى، مازلت أستريح للجدران الحجرية شرق محطة طرة، وقرب محطة حلوان ، شعرت بأنى اقتربت من باب الحديد، وأن المترو يسير فى شارع الملكة نازلى، كأنى فى حارتى المبلطة بالقطع البازلتية الكبيرة... فى بيتنا ، ذبت فى شارع الفجالة المزدحم حتى الشرم الصغير، من الشرم الصغير إلى سوق الزلط.. من سوق الزلط إلى حارة صارى جلة. مررت على مقهى وشربت حتى ارتويت ، كنت أسير مطمئنا وأقفز من الترام غير هياب، أقف طويلاً أمام فاترينات

المكتبات التى أرتاح لمنظر معروضاتها من الكتب ، حفظت عناوينها وأسماء مؤلفيها: لقيطة، الحائزة على جائزة مجمع اللغة العربية... أطياف.. خان الخليلى.. زقاق المدق.. الأيام التى قررت علينا فى السنة الأولى الثانوية ، لا أنسى إعلانات الشوارع.. . أفلام الكلبة لاسى التى كنت أعشقها.. طرزان .. مازلت أذكر ملصقاً عن فيلم أجنبى لم أشاهده بعنوان: النهاية والبداية، هل تأثر نجيب محفوظ بعنوان هذا الفيلم.. فيفا زاباتا.. ملصقات عن المطربة فايزة رشدى التى كانت تغنى فى أحد كباريهات عماد الدين، يبدو أنها سمت نفسها بهذا الاسم تيمنا بفاطمة رشدى، كانت يهودية وشربت المقلب وهاجرت إلى إسرائيل، أو ربما أجبرت على ذلك بطريقة ما ، ظلت محتفظة باسم الشهرة، ويقال إن قلبها كان مع ذكرياتها فى مصر، بعد أن أصبحت القراءة عادتى عرفت أن مما يدخل فى باب الهجاء ألا تعرف عن الكتب إلا عناوينها وأسماء مؤلفيها ، هدتنى الواجهات إلى الاختيار عندما عرفت الطريق إلى دار الكتب المصرية بباب الخلق، ثم دار الكتب بحلوان ، مازال منظر واجهات المكتبات يبهرنى..

أعرف طريقى فى حارات مصر القديمة، وبين بواباتها، وداخل كنائسها ومساجدها ، لكنى - إلى الآن - لا أعرف كيف أسير فى مصر الجديدة.

سـؤال

وجدت فى انتظارى أمر ضبط وإحضار، قالت إن العسكرى لا يعرف شيئا، قال إن عليك أن تحضر فى الخامسة مساء اليوم، وإلا أحيلت الأوراق للنيابة، أية أوراق؟.. لا يعرف ، أعطيته خمسة جنيهات، وضعها فى جيبه ثم قال: لو كان موجودا لاصطحبته الآن.. لا تدعيه يتأخر.. مجرد إجراءات.. لا أعرف عن ماذا؟... لا يقولون لى شيئا. لكل عمله المحدد.. عملى الضبط والإحضار.

الساعة تقترب من الخامسة ، من الممكن أن تكون خطة لحجزى فى القسم لحين العرض على النيابة فى الصباح، زميلى فى العمل حدث له ذلك، كان غريمه يعرف أحد ضباط الصف. بات على السلم المؤدى للبدروم، كان البدروم مزدحماً، من الممكن أن يكون فى انتظارى أمر اعتقال ..

حدث لى ذلك فى صباى..أو أعتقل ثم يصدر الأمر.. لا شىء مستبعد.

التقطت أول تاكسى قابلنى، أغلقت بابه برزعة قوية بعد فشل محاولاتى الأولى لمعاملته برفق، لم يتحرك السائق. كان شيخا متهالكا، وكان التاكسى كصاحبه، رأيته يتطلع فى المرآة ساهما.. بعد برهة، تحرك التاكسى.. قال فى شبه يأس وأسى:

ـ ياللاه..

ـ هل حدث شىء؟..

ـ الضابط

ـ ماله

ـ أخد النمرة

ـ لماذا؟..

ـ لا أعرف!..

ـ من الممكن أن تعود لسؤاله

ـ أسأل من؟!..

ـ الضابط

ـ حتى لو كان عسكرياً

ـ عندك حق

ـ هل يسأل هؤلاء؟!..

بأسى:

ـ لا ..

- العسكرى عاوز يقبض
- والضابط أيضا..
- ربما وجد المخالفة ليست على قد المقام .
- فلا يصيبك سوى التعالى .
- الإهانة
- كنت أرى أن تجرب السؤال .
- جربنا كثيرا.. نشف ريقنا.. وانحنت ظهورنا ونحن نجرب.

قلت مقلدا طريقته كى يبتسم:
- ياللاه

لم يبتسم..
- والله دى أول طلعه .

سكت..

عاد يسأل نفسه:
- لكن ليه خد النمرة؟!..
- ربما كان يكتب نمرة أخرى
- لم يكن فى الطريق غيرى..

نظرت فى وجهه عند مغادرة التاكسى، كانت الأسئلة مازالت تتماوج فى عينيه.

كم ملاكا يستطيع أن ينفذ من ثقب إبرة؟..

سؤال حيرالسفسطائيين فى أثينا.

قالوا إن بداخل كل قطرة مطر ملاكا يهبط معها من

السماء، كان المطر غزيراً، مد أبو نواس يده بكأس من النافذة حتى امتلأ، شربه فى جرعة واحدة، ربت على بطنه عدة ربتات، سألهم:

- كم ملاكا فى بطنى الآن؟..

اقتادونى إلى سجن الزنادقة..

المــؤلف

محمد محمود عبد الرازق

روائي وقاص.

*** صدر له:**

قصص:

١-الجرح الغائر

المركز القومي للفنون التشكيلية والآداب ، يناير ١٩٨٧ .

٢-أن .. تحبوا

الهيئة العامة للكتاب، قصص عربية، ١٩٨٩ .

٣-بنات الحور

الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤ .

٤-كوبرى التاريخ

الهيئة العامة للكتاب ، مختارات فصول، ١٩٩٥ .

٥-ساحل الذهب

الملتقى المصرى للإبداع والتنمية ، الإسكندرية، ١٩٩٩ .

٦-ثلاث مجموعات مرهقة

الهيئة العامة للكتاب، سلسلة آداب الحرب، ٢٠٠١ .

٧-جبل الأولياء

اتحاد الكتاب بالاشتراك مع الأهرام ، ٢٠٠٢ .

دراسات:

١-الإنسان بين الغربة والمطاردة - مقالات فى القصة القصيرة

الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية، ١٩٩٢ .

٢-الحقول الخضراء - دراسات فى الرواية

الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية، ١٩٩٥ .

٣-فن معايشة القصة القصيرة - الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٥ .

٤-عبد القادر القط .. المحيط الهادى

الهيئة العامة لقصور الثقافة، الكتاب التذكارى ١٩٩٧ .

٥-فتحى الإبيارى .. الإصرار والفطرة

مطبوعات نادى القصة بالإسكندرية ، ٢٠٠٠ .

٦-زمن القصة القصيرة - الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٢ .

المحتوى



للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة

أصوات أدبية